

مصطفى محمود

مغامرة في الصحراء



المكتب المصري الحديث

الجنة درجة حرارتها

٤٨

من نافذة الطائرة كانت تبدو الرمال المترامية بلا حدود تلمع في وهج الشمس كقميص من الذهب تعلو فيه التلال كهود مكورة خمرية في رسم سيربالي خرافي من تلك الرسوم التي يرسمها سلفادور دالي.

وكنت غارقا في أحلامي أتبع هذه اللوحة الأسطورية حينما تيقظت على يد رفيق في الرحلة الأخ على المصراق «الكاتب الليبي المعروف».

وسمعه يقول بصوت قلق:

- هل أحضرت في حقبتك كل اللوازم؟

قلت في اطمئنان :

- إن بها كل ما أحتاج إليه من هدم .

ورأيت ينفجر ضاحكاً :

- هدم ؟ ... هذه الحقيبة المنفوخة كلها هدم .. (وراح يقهقه) ..

- هل تعرف أن درجة الحرارة في غدامس خمسون درجة في الظل .. هل

سمعت النشرة الجوية ؟

قلت وقد بدأت أتصيب عرقاً :

- يا لطيف !

وتذكرت درجة حرارة الأربعين في القاهرة وأنا أسير مغشى على وقلت وأنا أرتجف :

- على أى حال لا بد أنى سأجد دساً في الأوتيل .

- هناك أدشاش بعدد ما تريد ولكن المياه ملحة وتشقق الجلد :

- أعوذ بالله وهل ستشرب من هذه المياه الملحة .

- يمكنك أن تشرب مياه غازية ولو أنها مصنوعة من نفس المياه الملحة ..

على أى حال هي مياه ملحة مفيدة للصحة فيها حديد ونحاس وزئبق .

- وزئبق كمان .. هذا يعنى أننا سوف نموت بالتسمم

- سوف نتعود .

- الظاهر أننا سوف نتعود على أشياء كثيرة .

- ولكنك طبعاً أحضرت معك المصل .

- أى مصل ؟

وهنا قفز صديق من كرسيه في انزعاج !

- المصل المضاد للعقرب والثعبان .. هل نسيته ؟

والواقع أنى كنت قد نسيته تماماً ..

وقلت وأنا أحاول أن اطمئن نفسى :

- وهل هناك عقارب وثعابين ؟

- وعناكب وحيات .. نحن نازلون في قلب الصحراء الأفريقية .

- ولكننا سوف نسكن في أوتيل وننام في غرفة يمكن أن نقفل بابها وشباكها علينا .

- ستنام في غرفة صحيح ولكنك لن تستطيع أن تقفل بابها من الحر إلا إذا كنت تريد أن تموت مسلوفاً .

وراح يضرب كفا بكف :

- كيف تنسى احتياطاً طبياً كهذا .. وأنا معتمد عليك باعتبارك طبيباً ؟

وارتفع أزيز الطائرة ذات المحرك الواحد وراحت ترتفع وتنخفض في

المطبات الساخنة كأنها ريشة في مهب الرياح وغرق المصراقي في سكوت قلق .

قلت وأنا أحاول أن أتمس كلمة مطمئنة :

- ولكن هناك مستشفى على أى حال أو مركز إسعاف في حالة ما إذا ..

- هناك مركز إسعاف ولكن الحقن الموجودة .. تنفذ بسرعة لأن حوادث العقارب كثيرة جداً .. وتمر أيام قبل أن تصل شحنة جديدة من طرابلس بالطائرة .. وأنت تعلم أن لدغة العقرب تقتل في ظرف ساعات .
- أعوذ بالله .

قال في نبرة استسلام :

- نهايته .. الأعمار كتاب .. والحذر لا ينجى من قدر .. وإذا كان مكتوباً لنا الموت في غدامس سنموت في غدامس حتى ولو كان مركز الإسعاف كله في جيبنا .
وشعرت بأطرافى تتلج لهذه النبرة الجنائزية .. لم يبق إلا أن نحضر معنا الأكفان .. ونقرأ الشهادتين .. ويكتب كل منا وصيته .

وراحت الطائرة تهتز مرة أخرى وتسقط كأنها تهوى إلى قاع بئر ثم ترتفع وتنزع أحشائى فى كل مرة .. ومال الأخ المصرانى على النافذة مشيراً بأصبعه :

- أترى هذه النقطة الخضراء ؟ هذه غدامس .. لؤلؤة الصحراء كما يسمونها .. فى هذه النقطة تاريخ أربعة آلاف سنة من الحضارة .

وأخذت الطائرة تدور مستعدة للهبوط .

وظهرت شوائى النخيل خضراء تلمع فى الشمس الغاربة .

وسكت المحرك الواحد وبدأت الطائرة تهبط حتى استوت على الأرض فى نعومة ..

وهبطنا لتستقبلنا على الباب لفحة ساخنة .

وكان الترمومتر فى المطار يشير إلى درجة ٤٥ .. ولكن الحرارة كانت محتملة بسبب الجفاف الشديد .

وكان كل شئ جافاً نظيفاً ساخناً .. الأرض والجدران والمقاعد والأبواب .. ولكن الهواء كان صافياً نقياً معقماً كأنه خارج من أتوكلاف وكان يدخل الصدر فيغسله .

وشعرت بالانتعاش بالرغم من شدة الحر .

ولكنى كنت مازلت أفكر فى العقارب .

وحينما التقينا بمصرف المنطقة الشيخ ونيس الدهماني .. (المتصرف فى مقام المحافظ عندنا) ، كنت مازلت مشغولاً بحكاية العقارب .. وكنت أفكر فى الطريقة التى أسأله بها .

وأمسك بيدي يشد عليها فى حرارة .

- كيف الحال ؟ انشا الله تكون مرتاح .. كيف الحال عندكو فى مصر ؟

ونظرت إلى الرجل المديد القامة .. كان وجهه الصريح وملاحظه الحادة القوية والسمة النبيلة التى تكسو وجهه تحكى قصة كفاح طويلة مع الصحراء ومراس متصل مع المشقات .

وكانت عيناه تندفقان طيبة وبساطة .

وقلت له إن الأحوال بخير فى مصر ودعوته لزيارتنا ولقضاء الشتاء على ضفاف النيل .

ولكنى كنت مازلت مشغولاً بحكاية العقارب .

ورأيتني أسأله فجأة عن العقارب .

وضحك الرجل ضحكة مجلجلة :

- العجارب .. العجارب ما بتعمل شئ .. الأولاد هنا يجمعوا العجارب في طاسة ويلعبوا بها .. يبنشوا عليها في الصحرا .. فيه حد يخاف م العجارب .. انت خايف يا دكتور ؟

وقلت له وأنا أكذب بشدة :

- لا .. لا .. أبدا ..

وعدت أسأل على استحياء بعد لحظة صمت :

- لكن يعني .. فيه أظن مركز إسعاف في البلد .. وفيه مصل عقرب ..
- ما في حد بياخذ المصل .. وحياناخذ المصل ليه .. العجارب ما بتعمل شئ ..

واعتبرت المسألة منتهية .. وأن العقارب ما بتعمل شئ ..

وقلت للأخ على متحديا :

- شايف يا على - العجارب ما بتعمل شئ ..

وضحك على ساخرا :

- طيب ما بتعمل شئ .. ما بتعمل شئ .. مبروك عليك عجارب غدامس .

وتطرق الحديث بعد ذلك إلى عديد من الموضوعات ثم خطر لي أن أسأل المتصرف في ناحية من نواحي اختصاصه فسألته عن إحصائية بالحوادث في غدامس في السنوات الأخيرة :

قال الرجل في استفهام :

- إحصائية بالحوادث .. كيف ؟

- يعني عدد الجرائم مثلا .. عدد الجنايات .

- جرائم .. كيف ؟

- جرائم السرقة .. وجرائم القتل .

وابتسم الرجل في طيبة :

- احنا ما عندنا جرائم .

وفتح دفترأ كبيرأ راح يقلب صفحاته أمامي .. صفحات عديدة بيضاء .. استفسارات من الوزارة .. وردود عليها .. مشروع مساكن شعبية .. مذكرة بإنشاء ناد للشباب .. محضر صلح بين عائلتين .. مذكرة من الأهالي بطلب بناء خزان ماء للمسجد .. ولكن لا جريمة واحدة .. لا جريمة سرقة .. ولا جريمة قتل .. الأمن مستتب بطول السنوات العشر الماضية .

وأبدت دهشتي وقلت إن هذا شئ غير معقول .. ثم عدت أقول إن البوليس لابد أنه كفء جدا .

وقال المتصرف :

- هذا بفضل السيد البدرى .

- قلت له إن السيد البدرى هذا رجل عظيم الشأن جدا وأبدت رغبتي في زيارته وفي الطريق إلى السيد البدرى كنت أقول لنفسى طول الوقت .. أخيراً وجدت الرجل الذى صنع المستحيل .. إنه ولاشك أعظم مأمور بوليس في الدنيا وفجأة توقف المتصرف وأشار بأصبعه إلى نافذة :

وفي حكاية أخرى أنها تفجرت تحت أقدام فرسة عقبة بن نافع .. كانت الفرسة تنبش بحافرها وهي عطشى فتفجر الماء تحت أقدامها ومن هنا سميت « عين الفرس » وهي حكاية مشكوك فيها لأن العين بدأت في الغالب مع مولد الواحة ذاتها ولم تحي متأخرة مع دخول الإسلام .

وهناك حكاية ثالثة تروى أن قافلة من البدو الرحل تذكروا بعد أن أوغلوا في الصحراء أنهم نسوا قصعة طعامهم في المكان الذي تغدوا فيه أمس وعادوا أدراجهم يبحثون عنها في المكان الذي أكلوا فيه ، وبينما هم يبحثون تفجرت العين فسموها عين غدامس أي حيث الغداء بالأمس .. غدا أمس .. فأصبحت غدامس وهي فبركة طريقة لاختلاق أصل عربى لاسم غير عربى .

لكن الحقيقة غير معروفة .

متى .. وكيف .. وفي أى عصر .. انفجر هذا ينبوع فأحال الصحراء إلى جنة .. لا أحد يعلم .

لكن كالعادة الخير أتى ومعه الشر .

فما لبثت الواحة الخصبة أن أصبحت مطعماً للأقوياء وتعاقب عليها الغزاة .. الرومان والوندال والبيزنطيون .. ومازالت بها إلى الآن آثار رومانية .. وطرز العمارة البيزنطية واضحة في طابع مبانيها .

ولقد ظلت غدامس مسيحية بسبب الوندال والبيزنطيين إلى سنة ٦٦٦ ميلادية (الموافقة ٤٢ هجرية) حينما دخلها العرب بقيادة عقبة بن نافع ليحولوها إلى الإسلام .. وبعد الحرب جاء الأتراك في القرن السادس عشر ثم إيطاليا في سنة ١٩٢٤ .. وانتهت قصة استعمار الواحة في يناير ١٩٤٣ حينما أغارت قاذفات القنابل الفرنسية على مطارات إيطاليا وثكناتها في الواحة في الحرب العالمية الثانية ونزل الستار على التاريخ الطويل الدامى .

ولكن أغلب الظن أنه كان هناك تاريخ ما قبل التاريخ في الواحة .. فهناك آثار عصر حجرى وسكاكين وخناجر من الصوان .. وقد عثر على تمثال عجل ذى رأس بشرى بالقرب من بئر عوان بجنوب غدامس ذى ملامح من النحت البدائى الذى كان موجوداً في مصر قبل التاريخ .

إنها قصة قد تطول إذن إلى عشرة آلاف سنة وربما أكثر لا أحد يدري .

وكل هذا التناطح دار حول بئر انفجرت وسط الصحراء .

وكان هناك نظام قديم للسقاية من البئر يدل على مدى قيمة الماء في ذلك الوقت فقد شق الأهالى عدة أنهار تجرى فيها مياه العين وعلى كل نهر بوابة يمكن أن تفتح وتقفل واستعملوا ما يشبه الساعة المائية .. سطل مثقوب تسيل منه المياه ببطء حتى يفرغ على مدى ساعة زمن .. وعند بدء الساعة يفتح أحد الأنهار لتستق منه إحدى القبائل وفي نهاية الساعة تقفل البوابة فتنتهى السقاية .. ويحى الدور على القبيلة الثانية التى تستق من النهر الثانى وهكذا يمر الدور على جميع القبائل .. أول نظام لعداد مائى في العالم .

ومازالت هناك ثلاثة أنهار جارية تخرج من البحيرة الكبيرة التى تصب فيها العين .. ومازالت تحمل الأسماء البربرية القديمة .. تاسكو .. وتارت .. وتنجسين .

وقد بنى الأهالى مدينتهم فوق هذه الأنهار فأصبحت أول مدينة تجرى من تحتها الأنهار كأنها الجنة ..

أهلها لا يعرفون السرقة ولا القتل ..

والبوليس يجلس فيها بلا وظيفة أمام دفاتر خالية ..

وتحكىها روح سيدى البدرى ..

وتجرى من تحتها الأنهار ..

ولكنها جنة عجيبة درجة حرارتها ٤٨ .

الكلمة بالليبي العامي	الكلمة بالعربي
يديرز	يثرثر
يعفلج	يزفز
باهي	كويس
الله غالب	يفتح الله
مربوحة	رابحة انشاء الله
لا سو	لا بأس
يشبح	يشوف
يرجب	يمتدح
عنده ناموس	عنده همه
هجاله	أرملة أو مطلق
لوطه	الأرض
طار السو	خد الثبر وراح
	(عند انكسار شيء)
مصامة الكرشة	آخر العنقود
يدهور	يتفسح
يكحل	يصبص
الانقر	قرة العين
الدلاع	البطيخ
يدوي	يتكلم
الكورفي	السخرة
يجنتر	يفشر

الظلام حالك من النهار

احترقت طائرة المارشال بالبو وهي الآن رماد تذروه الرياح من سنين .
ماتت القبلات .

والعشيقات الفاتنات أصبحن الآن عجائز بلا أسنان .

وهاهو السرير الشهير في فندق غدامس يشهد ليلة جديدة مختلفة .

فعندما يأتي الظلام سوف أوى إلى السرير وأنا احتضن كتاباً

إنه عشق من نوع جديد .

ولعله العشق الوحيد الذي تدوم فيه القبلات ويشمر العناق .

وشعرت بأني يجب أن أعتذر للبانو فلن يكون له دور كبير في غراميات
الليلة .

وكان بانو فاخرا مبطناً بالقيشاني الأسود والدفن فيه ينزل ساخناً ملتهباً
بلا سخان . وكل حنفية هنا تنزل منها المياه ساخنة . فرمال الواحة الملتببة

تعمل كموقد طبيعي طول الليل يرفع حرارة جميع الأشياء .

ورحت أنقب تحت السرير وراء الأبواب وفي الأركان عن العقارب
والنعاين والسحالي والعناكب والأفاعي .

وسمعت قرعاً على النافذة وأطل رأس الأخ المصراقى :

- أنت مستعد ؟

- ليه ؟

- حانطلع جبل قصر الغول .

كان خادم فندق غدامس يدور في غرفتي في سعادة ويشير بأصبعه مبتسماً إلى
السرير الذي أناام عليه .

- هذا السرير نام عليه المارشال بالبو منذ أكثر من ثلاثين سنة . . ومنذ
سنوات قليلة كانت تحتل هذه الغرفة صوفيا لورين ونامت على نفس السرير
أربعين ليلة . . كانت تصور هنا فيلم « الخيمة السوداء » وفي هذا البانو كانت
تستحم كل مساء .

إنها غرفة محظوظة . . في أيام الاستعمار الإيطالي كان المارشال بالبو يجلب
العشيقات الفاتنات من روما بالطائرة وكان يملأ هذه الغرفة بالضحكات . .
وكانت قرعات الكنوس ترن في سكون الواحة . . هذا سرير له ذكريات . .

ورحت أتمرغ في سرير المارشال بالبو وصوفيا لورين .

انتهت الضحكات .

وأعجبني الاسم .

كانت له رنة في الأذن توقظ الرغبة في المغامرة .

وقلت له إني آت فوراً .

جبل قصر الغول !

وفي دقائق كنا نركب عربة لاندروفر تترنج بنا خارجة من الواحة إلى عرض الصحراء .

وكان هذا أول لقاء لي مع الصحراء .. ذلك البساط من الرمل بلا حدود وبلا طرقات وبلا عود أخضر وبلا قطرة ماء .. وذلك الهواء الجاف الساخن كأنه منديل كبير من الشاش يمسح العرق ويجفف اللعاب .. وتلك الأرض الهشة التي انفطرت إلى ركام من الدقيق الأصفر وتلال وأكام وجبال ووديان تصفر فيها الرياح فتصبح السماء بلون الأرض ولا ترى يدك على بعد متر من عينيك وكأنك غرقت في مستحلب أصفر وتحولت إلى ذرة تراب في عالم من التراب يدخل من فك وأنفك وأذنيك وعينيك وجلدك ويلدعك بملايين النبال الساخنة .

وكانت اللاندروفر تتلوى صاعدة هابطة ساقطة .

وأمعاني تتخضخض .. ورأسي يخبط في السقف .. وبعضى يخبط في بعض .. والسائق ماهر جداً .. ومتخصص في الطريق ومعه دليل .. ونحن جميعاً نشكر الله .. فلولا ذلك لتأهت السيارة لأي خطأ طفيف في الاتجاه ودخلت في واحدة من تلك المتاهات التي يسمونها الرمال الناعمة حيث تغوص كما يغوص الحجر في الماء .

ومرت ساعات دون أن نقطع مسافة تذكر .

وظهرت الحدود الجزائرية على البعد .

ودرنا حول الحدود ثم بدأت السيارة تسرع على سهل منبسط لتلق بنا في النهاية عند أقدام جبل صغير أشهب مليء بالنتوءات الصخرية .. قال السائق وهو يتوقف أمامه :

- هذا هو جبل قصر الغول .. هنا حدثت المعركة بين جنود عقبة بن نافع وبين الكفار .

ونزلنا تتسابق جرياً إلى القمة وأشهد أن الأخ على المصراق كان أسرعنا وصولاً . وكان أول من صاح وهو يطل علينا من فوق :

- لقد وجدت البئر .

أما أنا فقد توقفت عند منتصف الجبل أمام كهف مظلم ..

وجلس على صخرة كبيرة ألتقط أنفاسي . وقال لي الضابط المرافق إن هذا الكهف نقيه جنود عقبة بن نافع في الجبل . وظلوا ينقبون في الجبل حتى بلغوا نقطة التقاطع مع البئر ورابطوا هناك يقطعون كل حبل يدلى به الكفار ليستقوا من الماء حتى أشرفوا على الموت عطشاً فلم يجحدوا بدا من النزول والالتحام مع جيش عقبة وانتهت المذبحة بانتصار العرب .. وأنت تستطيع أن ترى من هنا قبور الشهداء من الصحابة .. وأشار إلى عدد من القبور منصوبة بطريقة إسلامية بسيطة .

وحيناً بدأنا نسير نحو القبور .. كنت أفكر في الطريق الطويل الذي قطعه هؤلاء المحاربون من مكة إلى قلب الصحراء الليبية يسعون على الإبل وعلى الأقدام حفاة لا يملكون من الزاد إلا حفنة من التمر .
أي قوة رهيبة .

الكلمة بالعربي	الكلمة بالغدامسي
نجمة	ايري
دراهم	دراهم
الطفل	امطفال
الخصومة	اكناس
يبكي	يطزف
الفراشة	فرططوا
الخشب	ايجرج
النار	اوقا
الماء	آمان
النساي	ساي
القهوة	قهوة
المرأة	تلنا
الرجل	واجيد
١	يون
٢	سن
٣	كاراخي
٤	اكظ
٥	سمس
٦	سظ
٧	سا
٨	تام
٩	اتصو
١٠	ماراو
١٠٠	ماتة
ألف	الف
مليون	مليون

وأى طاقة أطلقتها كلمات القرآن في هؤلاء الأجلاف الجاهلين فجعلت منهم فدائيين ورسل فكر وعلم وحضارة يسعون لمصارعة الموت وهم يتسمعون .

وحينما بدأت أقرأ الفاتحة لاحظت أنى فقدت صوتي من العطش وأن حلق قد جف تماما وتحول الى أنبوبة من الحطب لا تخرج سوى الفحيح .

إن ترف المدينة واللاندروفر وخبراء الطريق لم تستطع أن تعطيني قوة .

إن الكهرباء والذرة والقطار والتليفزيون سوف تزيدنا رخاوة . .

إننا نفقد ولا نكسب .

إن إنسان العصر ينحرف تدريجياً ويخسر ذلك الشيء الذي كان عند هؤلاء المحاربين العظام الذين انطلقوا كالمردة وهبوا كالأعاصير وغبروا وجه الدنيا .

نور القلب قبل نور الكهرباء هو ما يجب أن نبحت عنه .

نبيح روح . . فتبع بتروول لا يكنى .

لقد خرج النور من أفقر أمة على وجه الأرض لا تملك سوى البعير والخيام واقتحم على الفرس والروم ديارهم وكل ذخيره كلمة حق .

واليوم عندنا الحديد والصلب والكهرباء والبخار والذرة ونغوص كل يوم في الحقد والكراهية الى الركبتين ونزداد رخاوة وضعفا .

العلم المادى أضاء لنا البيت ولكنه لم يضيء لنا قلوبنا .

العلم قدم لنا جاهلية جديدة أسلحتها الغواصات والصواريخ والقنابل الذرية .

وركعت أثم الرمال حيث تنام قلوب امتلأت عزما ومحبة وشجاعة .

وحينما كنا نعود إلى غدامس كانت أكثر من عشرين منذة تؤذن باسم الله .
وواحة غدامس تقع في قلب الصحراء الليبية على خط عرض ٣٠ شمالاً
وارتفاع ١٢٠٠ قدم فوق سطح البحر قرب حدود تونس والجزائر . وتعدادها
السكاني وصل في عام ١٨٤٥ إلى ثلاثة آلاف بينهم خمسمائة عبد . وفي سنة
١٩٤٠ وصل إلى تسعة آلاف وخمسمائة معظمهم من البربر والطوارق . وهو
تعداد كبير نسبياً . ففي بلد أخسر قريب مثل « فلفلت » يبلغ عدد السكان
أربعين نفرًا فقط منهم سبعة رجال والباقي نساء وأطفال . وهذا كل شعب
فلفلت .

والواحة محاطة بسور منخفض يبلغ محيطه ٣ أميال . فيه عدة أبواب كان
يقف عليها الحرس شاكي السلاح .

واشتهرت غدامس بطول التاريخ أنها أكبر محطة قوافل . وكان يمر منها في
العام أكثر من ثلاثين ألفاً من الإبل .

ومن أهم خطوط القوافل التي تخرج من غدامس ذلك الخط الذي يبدأ من
غدامس ثم يتجه إلى غات ثم تبوكتو .

وتجارة العاج وريش النعام وتراب الذهب والشاي والعطور التونسية
والثياب المطرزة ومناديل الحرير كانت تخرج وتدخل ليبيا عبر غدامس .

وقد عرف الكثير من التجار السبيل إلى الثراء عن طريق تلك القوافل .

كتب أحدهم يقول : « قطعت ذلك الطريق سبع مرات كنت في أولها خادماً
وفي آخر مرة كان عندي سبعة من الخدم » .

وكان هذا أمراً طبيعياً بالنسبة لعالم قديم لا يعرف الطائرة ولا القطار
ولا السيارة ولم تكن له شرايين يعيش بها سوى قوافل الصحاري .

ولكن مثل تلك الرحلات لم تكن نزهة سهلة . فقد كان الموت والهلاك
يرصد المسافر في كل خطوة من الوحوش وقطاع الطرق وهلاك الإبل والموت
عطشا وضلال الطريق وطول السفر الذي كان يمتد إلى شهور في الحر اللافتح
وسواقي الرياح . ولهذا كان طبيعياً أن يرتفع عن البضاعة إلى عشرة أضعافها
وأن يصبح الريح سخياً مجزياً . مثلاً كانت العبادة الحريرية يبلغ ثمنها عشرة
خراف وكان رأس الإبل الواحد يباع بمائة وعشرين خروفاً .

ومازال تجار غدامس إلى الآن يحتفظون بألقاب عائلاتهم القديمة . أولاد
شهاب وأولاد بكر . وأولاد التني .

والجد الأكبر لعائلة التني الذي بلغ من الثراء وتكدس الذهب إلى درجة
الحرافقة . كان يقال إن الجن هو الذي يجلب له الذهب وأنه بدأ وأتماله بكثرة
من العملات الذهبية دمه عليه الجن .

والأرض خصبة في غدامس تنبت كل شيء حتى القطن والزيتون والرمان
والشام والبطيخ والطماطم والخضر ولكنها مهملة لا ينبت فيها سوى النخيل .

وأعجب ما في غدامس مبانيها . البيوت المتلاصقة ذوات التتواءات المثلثة
(لطراد السياطين والأرواح الشريرة) والأبواب المنقوشة بالطلاسم والتعاويذ
وخاتم سليمان المطبوع على رقاع من الجلد ومعلق في المداخل .

وجميع البيوت لصق بعضها ولها سطح واحد ، والنساء يعشن على الأسطح
ولا يبرحنها .

يجتمع النساء . وسوق النساء . وحياة النساء . كلها على الأسطح

ولا يرى على الأرض في الشوارع إلا الرجال .

والشوارع جميعها مسقوفة وضيقة ومظلمة حالكة الظلام في عز النهار مثل
ممرات منجم تفوح منها روائح العرق والتراب . . ولا تستطيع أن تمشي فيها
بدون بطارية . .

وفي المدينة سوق للنخاسة كان يباع فيها الرقيق في الأيام الخالية .

وفيها أكثر من عشرين مسجداً . . وفي كل مسجد مقصورة خاصة
بالنساء . .

وجميع الغدامسة مسلمون متمسكون بديانتهم وعندما ينادى المؤذن للصلاة
تخلو جميع الشوارع وتخلو جميع المتاجر من الناس . . الكل يذهب إلى المسجد .

وهم يعالجون المحنون بتلاوة القرآن على رأسه .

ولا أحد يسرق ولا أحد يقتل . . والغدامسي إنسان وديع جدا ومسالماً جداً .

ومن تقاليد الزواج عندهم أن يبقى العريس والعروس في « الحجية » وهي
دروة أو خيمة صغيرة - متر في متر - داخل البيت لا يبرحانها لمدة سبعة أيام .

والأكلة الغدامسية الشعبية هي الملوخية والبازين .

والملوخية تظهى بطريقة خاصة ، فهي تجفف ثم تطحن حتى تصبح دقيقاً
غاية في النعومة ثم تمزج بالزيت وتضاف إلى الماء وتغلى مدة طويلة ثم يضاف
إليها اللحوم والبهارات وقليل من السمك . . وطبق الملوخية يقدم عادة مغطى
بالزيت . .

أما البازين (وهو أيضاً أكلة طرابلسية شائعة) فهو أشبه بالعصيدة
المصنوعة من دقيق الشعير والماء المغلى وبعد النضج يضاف إليها الملح ثم تكور

على شكل كرة وتجفف ويوضع في قلبها الخضار واللحم .

وفي غدامس قلعة بنيت في عهد الاحتلال الإيطالي وقلعة أخرى قديمة بنيت
في عهد الاحتلال التركي .

وما زال الغدامسة يذكرون اليوم المشؤم الذي جاءت فيه كوكبة من جنود
يوسف القرمالي (الحاكم التركي) إلى الواحة وأخذت بالغصب والتهديد أكثر
من ألف وزنة من الذهب أو كانت تجمع النساء والأطفال رهائن ويحصد كل من
يرفض الدفع .

وهم يذكرون أيضاً أيام الاستعمار الإيطالي الأسود سنة ١٩٤٠ حينما كان
الإيطاليون يجمعون الشبان ويحشدونهم بالسفينة لحرب الفرنسيين في الجزائر . .
وكانوا يعتقلون كل من يرفض ويودعونه السجن . . ويفرضون الضرائب على
كل تاجر وعلى كل رأس من الإبل .

وهم يذكرون ذلك اليوم من شهر يناير ١٩٤٣ حينما هاجمت قاذفات القنابل
الفرنسية غدامس لضرب التكتات الإيطالية فيها وأشعلت الحرائق وقتلت
المئات من الغدامسيين تحت الردم .

ولكنهم يواجهون هذه الكوارث بروح قدرية تؤمن بأن الموت كتاب وتسليم
كل شيء لله .

والقبائل التي تسكن غدامس بعضها بربر وبعضها طوارق وبعضها عرب .

والطوارق يسكنون خارج غدامس في قرية « الظاهرة » .

أما البربر فيسكنون المدينة وهم مزيج من عرق بربري وعربي وينحدرون
من قبيلتين : قبيلة وليد . . وقبيلة زيد .

ومن قبيلة وليد خرجت ثلاث قبائل : ضرار ، وناسكو ، ومازيغ .

ومن زيد خرجت أربع قبائل : جرسان ، وفرفة ، وتنجسين ، وأولاد باليل .
والقبائل السبع أطلقت أسماءها على شوارع المدينة . . شارع ضرار . .
وشارع تاسكو . . وشارع مازيغ . . وشارع جرسان . . وشارع فرفة . .
وشارع تنجسين . . وشارع باليل . .

وشارع باليل هو آخر شارع دار فيه القتال بين المسلمين وسكان الواحة
وهو القتال الذي استشهد فيه السيد البدرى .

والمدينة ذات البيوت المتلاصقة والسطح الواحد والشوارع المسقوفة لها
أيضاً عدة أبواب . . على كل باب تقرأ عبارة عربية منحوتة وتقرأ تاريخ بناء
ذلك الباب . . وكل باب له اسم .

على باب « أم سويلن » تقرأ :

يا من دخل وخرج بعد الضيق نجد الفرج .

وتدخل من باب « أم سويلن » إلى شارع مظلم يتفرع بك إلى تلك القنوات
الغريبة كأنها ممرات وتفتح بك الطرقات هنا وهناك على ميدان أو ساحة يجتمع
فيها أهل البلد في الحفلات والمهرجانات أو ملعب يلعب فيه الأطفال . .

وحفلات الأعراس عندهم يعزف فيها زمار وعدد من النساء يضربن المطبل
وهن محجيات تماماً ويرقص الرجال ولا ترقص النساء البربريات .

واللغة الغدامسية هي مزيج من اللغة العربية واللغة البربرية والعامية الليبية
واللغة الطارجية (لغة الطوارق) .

وتعدد الزوجات موجود بين الغدامسة ولكنه قليل .

وشروط البكارة في الزواج ضرورية .

وفي أحد شوارع البلدة المسقوفة نجد عدداً من الحمامات مبنية فوق أحد
أنهار عين الفرس (وجميع الأنهار التي تخرج من عين الفرس تجري تحت مبانى
البلدة . . فالبلدة مقامة فوق الأنهار) . وفي كل حمام تنمعة تضع عليها ثيابك
قبل أن تنزل إلى البانيو ، والبانيو هو النهر نفسه الذي تجري فيه مياه العين
دافئة صيفاً وشتاء .

وما زالت الأصنام التي كان يعبدونها أهل غدامس قائمة خارج البلدة قرب
قرية الظاهرة .

الرجل
و
معلم
المرأة
سافرة

وطوارق غدامس أكثر تحضراً وعمداً من إخوانهم الذين يعيشون على البداوة
والارتحال والتنقل وراء المراعى في صحارى الجزائر والسودان.

وهم يتبعون قبيلة كبرى اسمها فوغاس والاسم مشتق من فغسى باللغة
التارجية «أى الطوارقية» وهو اسم حيوان مفترس... وهذا يدل على العقيدة
الطوطمية «تقديس الحيوانات واعتبارها أجداداً انحدر منها الجنس».

وقد انحدر من فوغاس ثلاث قبائل: كل تسمى هاوت... وكل أوراغن...
وكل نسيلى.

وكلمة «كل» معناها ابن - أى ابن تسمى هاوت وابن أوراغن... وابن
نسيلى... وهى القبائل الثلاث التى تؤلف الطوارق الستة الذين يستقرون في
قرية الظاهرة خارج غدامس.

والطوارق الغدامسة مسلمون مالكية منسكون بدينهم.

وقد غير الإسلام طباعهم وعاداتهم.

ودخل الترانزيستور ودخلت البطارية والدراجة لتغيرهم أكثر.

وقواعد الزواج يحكمها التشريع الإسلامى، فلا زواج بين أبناء وبنات
البطن الواحدة ولا بين الأب وابنته ولا بين الأم وابنها ولا بين الأخوات في
الرضاع وبالمثل تكون المسابقة بين أمثال هؤلاء من الحرمات أيضاً.

وفي كل قبيلة فقيه يعلمها القرآن ويخرج معها في ارتحالها.

وامرأة عجوز سنها ٨٢ سنة اسمها «مبروكة ايدا ماهولزا» سمعتها تقرأ
القرآن في مصحف مخطوط... وهى تحفظ جميع السور عن ظهر قلب.

وفي الولاية الكبيرة التى أقامها لنا الطوارق جلسنا على سجاجيد وخشايا

لاشئ يشير في غدامس مثل هؤلاء الفرسان العرب الملتزمين. يركبون المهارى
(نوع من الإبل السريعة) ويسيرون في قوافل مهيبة لا يظهر من الواحد
إلا عيناه تبرقان في ضوء الشمس، أما الوجه والرأس فيخفيها لثام أبيض
وأحياناً ملون، والجسم يلتف في عباءة فضفاضة بيضاء أو ملونة... وإذا
صادقت أحدهما يمشى في الصحراء خيل إليك أنه أمير أو ملك يمشى في قصر،
فهو دائماً يمشى رافع الرأس في اعتداد وخطو ثابت واثق كأنه قيصر يتفقد
ملكته، وهو دائماً أنيق رشيق معطر.

هؤلاء الفرسان هم الطوارق.

والطوارق هم قبائل متعددة تملأ الصحارى الشاسعة في الجزائر وليبيا
والسودان والنيجىر.

ونيرة وقدم إلى كل منا فوطه نظيفة مبخرة بالسند والعنبر وبدأت الضيافة باللبن والتمر « وهم يشربون لبناً حامضاً » ثم الخروف المشوى بالكسكى ثم الساي العربي .

وقبل العشاء قدم شباب القبيلة عرضاً لألعاب الفروسية على ظهور المهارى ورقصت المهارى على الطبول .

وبعد العشاء بدأ السمر الذي طال إلى نصف الليل .

واللغة التي يتكلم بها الطوارق « التارجية » من أصل بربري ويقال إنها مشتقة من اللغات السامية القديمة وفي رأي ثالث إنها إنتاج محلي وإن لها أصولها الخاصة فهي وسائل التعبير الأولية التي ابتكرها الأجناس البدائية التي سكنت الشمال الأفريقي من ألوف السنين .

واللغة التارجية ليس فيها حرف (د) وحرف (ض) وإنما حرف واحد يدل على الاثنين وأيضاً لا يوجد فيها حرف (س) وحرف (ص) ولا حرف (ق) وحرف (ك) وإنما حرف واحد أقرب إلى حرف الصاد والكاف . ولغة الكتابة واسمها « تيفياخ » مؤلفة من ٢٤ حرفاً ، وهي أشبه بالعلامات الهندسية « دوائر ومربعات ونقط وشرط ومثلثات » . وهي تنقش على الحجارة والجلود والخشب وتستخدم في مناسبات قليلة لتسجيل الملكية أو عقود الزواج وتكتب من اليمين إلى اليسار أو من فوق إلى تحت ، ويتخاطب العشاق بإشارات من أصابعهم دون نطق كطريقة سرية للتفاهم على المواعيد .

وأصل هذه اللغة غير معروف ويقال إنها مثل لغة الكلام من أصل سامي .

واللغة العربية معروفة قراءة وكتابة بالنسبة للطوارق الغدامسة .

وللطوارق أشعار وأغان ومثنويات باللغة التارجية يتحدث عن الحروب

والحب والصحراء والجمال وسكون الليل وجلسة العشاق متسابكي الأيدي حول النار الراقصة وذلك الإحساس الذي يستولى على الحبيبين فيسعران بالجمال الطاغى للحياة والقمر والنجوم ورقصة العصفور « مولا مولا » أمام الخيمة وتنسوق القلب حيناً يفضي بأعشق اللواحج والعواطف .

وهم يغنون أشعارهم على الربابة « يمزاد » .

والعجائز تحكى الحكايات والأساطير للأطفال قبل النوم . . وأسهر الأساطير تلك التي تحكى أن الصحارى في الماضي البعيد كان يسكنها ناس يتبحون كالكلاب ولا يعرفون الله وأن ملكهم عكار كان غائباً جباراً وأنه مات مقتولاً وبنت له مقبرة هائلة من الحجارة .

وموسيقى الطوارق هي معزوفات على المزاد والطبول والسلم الموسيقي خماسي مثل الموسيقى السودانية .

ولا يعزف الربابة « يمزاد » إلا النساء . . وإجادة المزاد علامة على حسن تربية البنت وتبل عنصرها . وبعض الفتيات عازفات قدبرات ذوات شهرة بين قبيلتهن يقطع هن الرجال أميالاً من الصحارى ليستمعوا إليهن .

وعادة اللثام بالنسبة للرجل والسفور بالنسبة للمرأة عادة غريبة من المصنوع تسميها .

والنظرية القائلة بأن اللثام يلبس كوقاية من العواصف الرملية لا تفسر لنا لماذا لا تلبسه المرأة أيضا . . والنظرية التي تقول إن الرجل يلبس اللثام ليتخفى عن عدوه نظرية غير صحيحة لأن الرجال يتصارفون على بعضهم بالرغم من اللثام .

وأغلب الظن أنه نوع قديم من التحريم الوثني الذي كان يعتبر فم الرجل عورة ' لأنه مدخل الهواء والماء والطعام ، ويخرج التنفس أو هو باب الروح الذي يمكن أن يدخل منه الجن والأرواح الطيبة والشريرة ' ، ولهذا وجب أن يحجب الرجل فلا يكشفه أبدا .

والمرأة تقول في امتداح زوجها أنها عاشت معه عشرين سنة دون أن ترى فيه . .

وحينا يحدث أن يقع اللثام فجأة فإن الرجل يسارع بيده ليحجب فيه وكأنه عورة فعلا ويسارع بيده الأخرى ليلتقط اللثام من على الأرض .

ومنتهى سوء الأدب أن يكشف الرجل فيه أمام المرأة حتى ولو كانت زوجته .

ولا يمشي بدون لثام غير الأطفال ، فإذا أدركوا سن البلوغ ألبسهم أبائهم اللثام في احتفال يقام خصيصا لذلك ، ومن تلك اللحظة يسمح لهم بحضور مجالس السمر وينظر لهم على أنهم أصبحوا رجالا .

إن اللثام علامة كمال الرجولة .

الكلمة بالعربي	الكلمة بالتارجي	الكلمة بالعربي	الكلمة بالتارجي
عين	طيط	الكراهية	كوسن
وردة	طيط	الفضب	أبليس
الحليب	آخ	الفرح	ترامان
الدم	أهني	الحرب	أن مفقى
قر	تينى	السلام	مانا وين
المحبة	ترا	أهلا	ايسلا
الذكر	اى	الحياة	تامت دورت
الأنثى	تونتى	الموت	تامت تانت
الجمل	ايمناس	الله	ايملى
الحصان	ايس	الريح	أضو
شجرة	أشك	جبل	أضرار
صحراء	تينيرى	مهرجان	أراواضى
المطر	أنجى	قبيلة	تاوسنت
الطفل	أباراء	خبز	تاكايا
النار	تيمسى	ماء	أمان
الخطب	ايضا غيرن	سما	أجنا
الرجل	اكس	الخير	أين
المرأة	طمط		

وحتى أثناء الأكل على الرجل ألا يكشف عن فنه .. وعليه أن يأكل من تحت اللثام ومن يكشف عن فنه أثناء الأكل فهو يدل على وضاعة تربيته وسوء متبته تماما كمن يأكل بأظافره عندنا .

أما لماذا لا تلبس المرأة اللثام فهو أمر غير مفهوم .

ولماذا اعتبرت التقاليد فم الرجل عورة ولم تعتبر فم المرأة عورة ؟ .

هذه كلها أسئلة بلا جواب .

والطوارق لا يختنون البنات .. والختان عملية مقصورة على الذكور .

وختان الأطفال يتم في اليوم السابع .

كما أن تسمية الأطفال تتم أيضاً في اليوم السابع .. يسميهم أعيانهم وليس أبائهم .

والزواج يبدأ بالخطبة والأب هو الذي يخطب لابنته .

لكن البنت في الطوارق تختار في حرية .. وتوافق أو لا توافق .. والمهر عادة سبعة رؤوس من الإبل أو ما يقابلها من الخراف ويتم حفل العرس بالموسيقى والغناء ' أغنية شجرة الزيتون ' وفي نظر الدكتور فرمان أن هذا دليل على بقايا وثنية لأن شجرة الزيتون من الأشجار التي كانت تعبد أيام الوثنية الأولى .

وتبدأ العلاقة الزوجية وتستمر سنة وأحياناً خمس سنوات ، تذهب الزوجة كل ليلة إلى الزوج لتبيت معه ثم تعود لأهلها في الصباح ويسمون هذه الفترة فترة التأهيل .

وبعد هذه الفترة تعد خيمة جديدة بمستلزماتها يوضع فيها جهاز العروس

وتدخل امرأة عجوز لتقرأ تعاويذ خاصة لطرد الجن .. وبعد ذلك تبدأ الحياة المشتركة .

والطلاق يحدث بسبب العقم وسوء المعاملة وأمراض مثل الجذام والجنون .. وعلى المرأة بعد الطلاق أن تقضى شهور العدة كما في الإسلام قبل أن يجوز لها الزواج من جديد .

والطوارق الغدامية اشتراكيون بالفطرة . فإذا ذبح أحدهم ذبيحة فهو يطعم كل الجيران ويقسم الذبيحة بالتساوي على القبيلة .. ولا أحد يأكل اللحم وحده . وكذلك إذا تقدم السن بأحدهم فإن كل القبيلة تشترك في سداده حاجاته وكل واحد يعطيه نصيباً من السكر والشاي واللحم والأقمشة .

ولا يوجد طوارق يشحذ .

والسارق يعاقب بالطرد والنيل والمقاطعة الكاملة من القبيلة .

والقاتل يحكم عليه بالقتل .. والحكم يصدره الرئيس الأعلى للقبائل ' امينو كال ' .

والطوارق معصرون . والواحد منهم يبلغ الثمانين وهو يحتفظ بجميع لياقاته وفي صحة جيدة .. والسري في ذلك هو حياة الهواء الطلق والطعام القليل وبساطة المعيشة وخلوها من القلق والهموم .

والطوارق لا يأكل إلا وجبة واحدة وباقي اليوم يشرب اللبن ، وأثناء الترحال الطويل يكتفي بشرب اللبن وأكل التمر وهو يشرب من اللبن كميات كبيرة ، وأحياناً لثراً كاملاً في المرة الواحدة ، وهو دائماً لبن حامض .. وهو لا يعرف الخمر ولا المخدرات .. ويمضغ الدخان ولا يدخنه

وهم يحكون عن أوفانائيت الذي كان مغرماً بتدخين البيبه وعاش ١١٥ سنة.

والطوارق لا يهرب عندما يحضره الموت ينطق بالشهادتين إذا كان مسلماً وإلا فهو يرفع أصبعه السبابة ويطلق آخر تنهيدة.

ويعقب الموت الغسل ثم التكفين والدفن على الطريقة الإسلامية حيث يمدد متجهاً إلى القبلة، ثم تفك خيمة الميت ويصبح مكانها حراماً لا ينصب أحد خيمته فيه.

وترفع الراية البيضاء على الخيمة حيناً يموت أحد فيها.

والحداد والملابس السوداء واللطم والندب والحويل أشياء غير معروفة بين الطوارق، والكلمة التي تقال عند الموت لأهل الميت: علينا أن نفرح، فقد ذهب من نحب إلى الجنة.

والزوج يلبث ثلاثة أيام بعد وفاة زوجته في خلوة كاملة داخل خيمته لا يبرحها..

والزوجة تظل أربعة أشهر وعشرة أيام في اعتكاف كامل، ثم بعد هذا تستطيع معاودة الحياة الاجتماعية العادية وتزوج إذا أرادت.

والزوجة لها مقام عال ولها احترام في بيت الزوجية، وهي تشارك زوجها جميع المسؤوليات والأعباء، ورأيها يؤخذ في كل الشئون.. وتعدد الزوجات غير معروف بين الطوارق مع أن الإسلام يبيحه.. ولا تفسير لهذه الظاهرة سوى أن الطوارق قد ورثوا مع ما ورثوه من تقاليد "تقديس الأم" استمراراً للقوانين القديمة التي كانت تضع الأم على رأس القبيلة وتنسب الابن لأمه

الكلمة العربية	الكلمة التارجية
البيض	تيسادالن
الحيز	تاجلا - تاكايا
النساي	شاهي
القمح	ايرد
الذرة	اينالي
التمر	تبني
البصل	ايفيليلي
النسطة	الحمر
الشعير	تيمظن
اللبن	أخ
اللحم	ايسان
الدخان	تابا
ملعقة	تاسوكالت
إناء الطبخ	ايغير
الحلو	ياظيه
المر	سحم

لا لأبيه وتعطى المرأة الحق في أن تتزوج أكثر من زوج ، وأن تكون الحاكمة على أزواجها الرجال والحاكمة على القبيلة كلها .

وفي كتاب تاريخ السودان نجد بالفعل المؤلف يزوي لنا أن في سنة ١٤٧٥ كانت تقطن السودان قبيلة من البربر تحكمها امرأة اسمها بيجوم كاي . ومعنى ذلك أن نظام سيادة الأم كان معروفا بالنسبة للبربر القدماء .

وبالرغم من انقراض هذا النظام إلا أنه مازال يخلف تلك الآثار من تقديس المرأة في قبيلة الطوارق . فالمرأة تعمل وتعزف الموسيقى وترأس الحفلات وتختار حبيبها وتختار زوجها . وترفض تعدد الزوجات بالرغم من أن الإسلام يبيح هذا التعدد شرعا .

ومن أسماء الرجال . . أوخا . إخدیدی . أخيا . . أخنوخا .

وأخيا التاريخي كان فارسا شهيرا حارب الأتراك في غات وقتل حاميتها وقاد ثورة مطالبا بالامتيازات السياسية .

وأخنوخا التاريخي عاصر نابليون . . وأرسل له نابليون الرسل لي عقد اتفاقية بين فرنسا والطوارق فرفض أخنوخا . .

ومن أسماء الفتيات . . فتاتا . . ومالا .

القبائل
بحك
الانف
بالانف

وكل تلك القبائل كانت من أجناس ما قبل التاريخ ، من ذلك الجنس الذي ظهر في الشمال الأفريقي والذي يعرف باسم « كروما جنون » .

ويقال إن أصل الطوارق من البربر وأصل البربر من جنس الكروما جنون .

وفي أحد الآراء أن الفراعنة أنفسهم من البربر . ويساق هذا الرأي كتفسير للطفرة الحضارية التي حدثت في وادي النيل وكيف كانت بتأثير هجرات من الكروما جنون والبربر .

ومعنى هذه النظرية أننا سنلتق مع الطوارق في سابع جد .

وفي رأي آخر أن أصل الفراعنة آسيوى .

والكلام كثير في أصل الفراعنة والحقيقة غير معروفة . .

لكن مما لا شك فيه أن الصلات بين مصر وليبيا عن طريق التجارة والهجرة والحروب لم تنقطع طوال التاريخ القديم .

أما الطوارق البيض والشقر ذوو العيون الزرقاء فهم من دماء أوربية جاءت إلى الشمال الأفريقي عن طريق البحر في الزمن القديم . . وفي قول آخر أنهم من أصل أفريقي وفينيقي وكريتي .

وطوارق الجنوب السود ذوو التقاطيع الزنجية من أصل سوداني جنوبي .

والمؤرخون العرب لهم نظرية خاصة في أصل البربر . . يقول ابن عبد الحكم إنهم من فلسطين وأنهم هربوا بعد مقتل ملكهم جالوت بيد النبي داود وهاجروا إلى ليبيا .

وتحدث صاحب المسالك عن هجرة قبائل الهوارة والزناة والداريسة

يبدو أن قلب الصحراء الليبية كان مسرحاً لإنسان ما قبل التاريخ . . تدل على ذلك الثروة الهائلة من الآثار والمخلفات من العصر الحجري . . ما تكاد تحفر في الرمل حتى تعثر على تلك الآلات العجيبة . . سكاكين وبلط وحراش وسهام ومناشير ومبارد حجرية وأبر من العظام . .

وتلك التلال من الحصى المرصوص عند أقدام الجبال هي مائتي من شواهد المدافن القديمة . ما تكاد تحفر تحتها حتى تجد مئات من الهياكل العظمية والأدمية لهؤلاء الذين رقدوا رقاد الموت منذ عشرة آلاف سنة .

وعلى جدران الكهوف ترك الفنان الأول رسومه الأولى وأولى مغامراته في عالم الفن . . صوراً محفورة بأناقة مذهلة وملونة للفضال والزراف والنور والرقص والصيد والزواج والحب رسمها قبل أن يعرف كيف يكتب وكيف يتكلم .

والخيلة وانتشارهم بين طرابلس والدواخل الصحراوية.

ويقول ابن خلدون إن البربر هم أولاد كنعان ونوح.

أما الرأي الأوروبي الذي يقول بأن الطوارق فينيقيون هربوا من وجه الإسكندر المقدوني فهو رأي خاطئ لأن وجود هذه القبائل قديم وثابت منذ أيام هيرودوت وقبل الإسكندر بزمان طويل.

ومن ظريف الوثائق ما كتبه هيرودوت يصف جبلا سماه بجبل الأطلس يقول هيرودوت:

« وقد وجدته جبلا مرتفعا شديدا الانحدار من ناحيته حتى ليستحيل على الناظر أن يرى قمته التي يقطبها الضباب صيفا وشتاء. ويقول سكان الوادي إن هناك على القمة تقوم دولة السماء ويسكن أهل الأتلاتيس ».

ورد هذا الكلام في رحلة هيرودوت إلى شمال أفريقيا ووصوله إلى منطقة طوارق الهجارة في الجزائر. وأغلب الظن أنه قصد بالقمة التي وصفها القمة المعروفة الآن « مونت أودان ».

ولكن خرافة دولة السماء وقارة الأتلاتيس ما لبثت أن تناولها أفلاطون ليجعل منها المسرح الخيالي لجمهوريته حيث تصورهما جزيرة في وسط البحر يسكنها صفوة من المثاليين ويقوم عليها مجتمع نموذجي هو الذي وصفه في جمهورية أفلاطون.

ثم انتقلت خرافة الأتلاتيس لتصبح القارة المفقودة بين أفريقيا وأمريكا التي ابتلعها المحيط وحق عليها عقاب الإله العادل حين خرجت عن طاعة الله. (قصة أشبه بالجنة وطرد آدم) ومنذ ذلك الحين دخلت قارة الأتلاتيس إلى كتب القبيبات وتحولت إلى لغز مثير. والأصل سطر كتبه هيرودوت في رحلته

إلى طوارق الهجارة.

هيرودوت يسمي قبائل الطوارق « ناسامون » ناس آمون ويذكر عنها أنها قبائل تصطاد الجراد وتحففه في الشمس ثم تطحنه وتخرج الدقيق الناتج بالذبن (وهي عادة موجودة عند بعض الطوارق إلى الآن).

ويذكر هيرودوت أن ناسامون لهم أيام مقدسة يترددون فيها على قبور أجدادهم لأخذ مشورتهم في أمور الحياة الدنيا أو لسؤالهم عن المستقبل. (وهي عادة مازالت متبعة عند عشيرة الطوارق يبتن إلى جوار المقابر ليحل من بأخبار المفقودين والغائبين).

ويذكر هيرودوت طريقة تصفيف الشعر وتسريحه عند الطوارق بما يتفق مع الملاحظات المشاهدة حالياً.

وقد لعت أسماء غربية لرحالة ومؤرخين ذرعوا رمال الصحاري وألفوا المراجع القيمة أمثال: البكري. . والادريسي. . ابن سعيد. . ابن قاطما. . أبو الفدا. . وابن بطوطة.

يقول ابن بطوطة انه عبر الصحراء الليبية لقييلة برداما وهي قبيلة من البدو الرحل لا تستقر في مكان وتنتاز بأن نساءها جيالات سمينات ويقول فيهن ابن بطوطة انهن أجمل ما رأى من نساء العالم.

ويضرب ابن بطوطة في الصحراء شهورا يخترق فيها مناطق جرداء لاماء فيها ولا شجر وينصف لنا مناجم للملح والنحاس ومياه حديدية تغسل فيها ثيابك فيسود لونها. . ثم يصف لنا ضحيته لقافلة بها ستائة فتاة من الرقيق. . ثم يصف لنا وصوله أخيرا الى منطقة الهجارة ورؤيته لقبيلة عجيبة. رجالها ملتزمون ونساءها سافرات « الطوارق ».

ولم تترك هذه القبيلة أثراً طيباً في نفس ابن بطوطة . فقد استوقف بعض فرسانها قافلته وأخذوا منها أقنعة وبضائع ، وكان ذلك في رمضان . ويقول ابن بطوطة عن حرمة شهر رمضان إنه حتى لصوص الصحاري يتعففون في هذا الشهر عن السرقة فلا يمدون أيديهم إلى شيء ولو كان مفقوداً وبلا صاحب .

أما ابن خلدون فينقل ما يرويه عن الطوارق من شهادة الآخرين .

أما الرحالة الأوروبي أنتونيو مالفوتى ، فيصف الطوارق بأنهم جنس راق وفرسان على درجة عالية من النبيل والشجاعة . ويقول إنهم يعتمدون في طعامهم على اللبن والأرز واللحم ، وإنهم ألد أعداء اليهود ، ولا يجزؤون يهودى على الاقتراب من مضارب خيامهم .

ويقول هيرودت إن عبادة الأجداد كانت متبعة في ليبيا القديمة . . وبالنسبة للصحراء الليبية القريبة من مصر كانت عبادة إيزيس وتقديم القرابين للشمس والقمر وتحريم أكل الخنزير ولحم البقر طقوساً متبعة . . وبالنسبة للجزء الشمالى من الصحراء كانت الآلهة أمثال إله البحر والخصب والمطر تعبد . . وكانت القرابين البشرية تقدم في القرن الثالث قبل المسيح .

ومن المحتمل أن يكون الطوارق الأوائل عبدوا آمون . . ولكن لا يوجد ما يؤيد ذلك في الرسوم والحفائر القديمة . . فلم يعثر إلى الآن على رسم قرص الشمس المعروف .

والرأى الآخر أنهم كانوا يعبدون الحيوان أمثال الثور والبقرة والزراف (العقائد الطوطمية) ، بدليل ما وجد من رسوم جميلة ومفصلة لهذه الحيوانات .

وبالرغم من وجود رسم الصليب في بعض الآثار التاريخية إلا أن دخول المسيحية إليها أمر مشكوك فيه . . وفي رأى ابن خلدون أن المسيحية لم تدخل الصحراء الليبية . . وهو رأى خاطئ لأن المسيحية دخلت غدامس أيام

البيزنطيين والرومان .

ولكن ابن خلدون يقول رأياً مختلفاً في الديانة اليهودية ، فهو يعتقد أن الديانة اليهودية تسلمت إلى الصحراء وأن اليهود انتشروا في قبائل الهوارة بالذات .

ويحتمل أن يكون بعض أجداد الطوارق من اليهود ولكن الأمر المؤكد أن الإسلام اكتسح هذه القلة .

وقد دخل الإسلام الطوارق مع عقبة بن نافع وانتشر بين كل القبائل التاريخية ، ولكنه بالنسبة لطوارق الجبل والدواخل الرجل كان إسلاماً سطحياً . فعظم العادات الوثنية ظلت على حالها وظلت اللغة على حالها وبقى القرآن كتاباً يقرأ بطريقة بيغاوية دون أن يفهم ، مثله مثل التعاويذ الغامضة الأسطورية .

وهناك مدارس الدين واللغة العربية والقرآن ، ولكنها قليلة جداً ، وهي بالنسبة للقبائل الرجل غير معروفة .

ومع ذلك فقد ظل الإسلام على ضعفه هو علم المقاومة الذى تجمع تحت رايته الطوارق الذين حاربوا الاستعمار الفرنسى والإيطالى .

والاعتقاد في الجن والأماكن المسكونة والأرواح الطيبة والشريرة التى ترتاد الينابيع والجداول . . والاعتقاد في الأشجار التى تلبسها الأرواح . أكثر رسوخاً عند الطوارق الرجل من العقيدة الإسلامية الزائرة . .

وشئ مألوف أن ترى رجلاً من الطوارق يرجم شجرة ليترد منها الجن . . أو امرأة تعلق شيشياً قديماً على باب الخيمة لتطرد الأرواح الشريرة ، أو تستعمل قرن خروب لمنع الحسد . . أو عجوزاً تبيع أحجية وتعاويد أو جلد

بقرة للوقاية من لدغة العقرب والثعبان ، وهم يشمون جلد بقرة الوحش كعلاج من لدغة العقرب .

والطارق الذي يحلم بأنه يأكل البلح يفسر حلمه بأنه سوف يصاب بجراح . . فإذا حلم بتعبان فهو شر مستطير . . وإذا حلم بأنه يحمل راية بيضاء فهو فال حسن ، وإذا حلم بأنه يحمل راية سوداء فهي كارثة .

وخرافة شائعة أن الذي يصاب بجرح يمتنع عن شرب اللبن اعتقاداً منهم أن اللبن سوف يساعد على تكوين الصديد .

ومعظم هذه العقائد هي بقايا وثنية لم يستطع الإسلام أن يحسوها من الأذهان .

وقد ظل الطوارق يعيشون حياة مستقلة في أغلب فترات حياتهم ، لم يستطع الغزاة من الفرس والرومان ولا التتار والهكسوس والوندال أن يقتحموا أسوار هذه العزلة لبعدها ولأن مناهات من الصحارى الجرداء كانت تحمي هذه العزلة من كل جانب .

ولهذا استطاع الطوارق أن يصنعوا لأنفسهم حياة وعادات وتقاليد وأعراقاً وطبائعاً انفردوا بها ومازالوا يتميزون بها .

وكلمياً توغلنا في الصحراء وخرجنا من غدامس إلى أطراف البادية ومراعى الجبال والتقينا بالطوارق الأول الذين ما زالوا يعيشون حياة القسوة والتنقل بين قبائل الهجارة في الجزائر والسودان والصحراء ، استطعنا أن نتعرف على تلك

الكلمة بالعربية	الكلمة بالتاريخية
الأصبع	ايضض
الأنف	تيهار
الفم	أجي
اللسان	ايلس
الذقن	تامرت
الشعر	أهيواف
البطن	تاسا
القلب	اوول
الكبد	أوسا
العقل	تايقى
المخ	أككل
الأسنان	أيسنان
الكف	ديكل
الذراع	أفوس
الساق	أبر
القدم	أزره
الأذن	تامما ظوج
الأظافر	أسكارن
الظهر	أرورى
الأكتاف	ايظيرن
الرأس	ايغاف

العادات البدائية التي مازالت على حالها لم يهذبها الإسلام . . ومنها تلك الحرية الجنسية التي يتمتع بها الأولاد والبنات . . فنذ أن يبلغ الولد سن الخامسة عشرة ويضع اللثام ويصبح رجلاً . . يصبح له الحق في حضور « الهال » ، وهو مجلس الكبار حيث يتسامر الكل في جو مختلط مفتوح في شبه حفل يبدأ بعزف الموسيقى (اليزاد) ، وتعزفها في العادة فتاة ثم السمر ثم الغزل فيميل كل شاب على الفتاة إلى جواره يقبلها بحك الأنف في الأنف ويتواعدان على اختلاس اللقاءات في الخلاء . . ويحدث عادة أن تتم اللقاءات المختلسة في نفس الليلة حيث يمارس الأولاد والبنات لعبة الجنس بلا حرج وبلا حمل .

والهكارة شيء غير معروف في الطوارق (بحوث الأب فوكو والدكتور فولان) .

وفي حالات الحمل النادرة تذهب البنت إلى الداية فتكتب لها تعويذة تذيبها في الماء لتشرها فإذا لم يحدث الإجهاض قامت بإجهاضها ، فإذا حدثت الولادة يخلق المولود . . والبنت التي يعرف عنها أنها حملت دون زواج ينظر إليها في احتقار من الجميع .

وبسبب حرية العلاقات الجنسية فإن الزواج لا يحدث إلا في سن متأخرة ثلاثين سنة بالنسبة للرجل وعشرين سنة بالنسبة للبنت .

وتبادل الجنس ليس غاراً عند الطوارق وإنما العار أن يكون ذلك بين رجل وجارية أو امرأة وعبيدها .

ومن الصعب الحكم على السلوك الجنسي للمرأة بعد الزواج من حيث الحيانة والوفاء . ولكن من المعلوم أن عقاب الزانية هو الموت . . ومن المعلوم أيضاً أن الرجل قد يخون زوجته مع جارياته وعبيداته . . وفي حالة حمل إحدى هذه الجاريات تكون فضيحة ويحدث في مثل تلك الحالات أن تفضب الزوجة

عند أهلها ولا تعود إلا في حالة دفع تعويضات مادية كبيرة .

ومن التقاليد العجيبة أن لقاءات الجنس بين العشاق تتم في خلوة وخصوصية ، فإذا ضبط عزول هذه الخلوة فعلى العشيق الذي افتضح أمره أن يبادر بإهداء العزول هدية فورية ، وإلا فإن العزول يرفع اللثام كاشفاً عن شخصيته ويصبح له الحق في أن يحل محل غريمه في خلوته . .

مجمع
خبر
الملك
الملك

والتزاج بين فارس وجارية أمر مستهجن جداً ومشين .

والفرسان لا يعمل لهم إلا الحرب وحراسة القوافل والسطو على الأعداء ،
وهم يحتقرون الحرفيين ويعتبرون العمل اليدوي وضعيفاً .

ونستطيع أن نعرف الفارس من مشيته ، فهو يختال في خطواته ويختال في
كلماته ويتأنق في ملبسه وأحياناً يلبس ثامناً أحمر زبادة في الأثاقه .

ورجل الدين « شريفن » من الكلمة العربية شريف . . له مكانة محترمة في
قبيلة الطوارق ، وهو يعنى من الضرائب ، ويعتبر في مستوى الفارس بالنسبة
للمكانة الطبقية . . وهو الذى يدرس القرآن والشريعة الإسلامية لأطفال
القبيلة .

والعبيد والجواري وكلهم رقيق وأسرى غنمهم القبيلة في حروبها أو اشترتهم
من تجار النخاسة . . يعاملون بإنسانية . فالعبد يمكن أن يمتلك رهوساً من الماشية
أو حصاناً ، وهو إذا بلغ سن الزواج فإن سيده يعطيه مهراً ليتزوج . . وإذا
أنجب السيد من جارية فإن الابن الذى ينجم من العلاقة يحق له الميراث . .
ويستطيع العبد أن يخرج من خدمة سيده ليتحق بخدمة سيد آخر بسبب سوء
المعاملة . . وإذا تزوج السيد من جاريته فإنها تصبح حرة . . وبعد إلغاء الرقيق
تحول العبيد إلى خدم وظلوا ملازمين لقبائل ساداتهم . .

أما أصحاب الحرف فهم فئة محتقرة وكل من يزاول عملاً يدوياً يحتقر عند
الطوارق . والطارق يخاف من الحداد ومن كل من له صلة بالنار أو من يطرق
المعادن ويظن أنهم على صلة بالشياطين والجنان ولذلك يسكن بعيداً عنهم
وينجنبهم .

والحلاق عند الطوارق يحلق الشعر ويخلع الأسنان ويقوم بالعمليات الجراحية
الصغيرة كالطهارة وإيقاف النزيف وعلاج الجروح .

يجتمع الطوارق مجتمع طبق . . . على رأس جميع القبائل نجد الأمير « أمينو
كال » وهو الحاكم الأصلي لجميع القبائل ويصل إلى الحكم وراثة عن أبيه
كالنظام الملكى . . ورمز الامارة طبل كبير يعلق على باب خيمته ويقصرع هذا
الطبل عند قدوم الضيوف أو في الحفلات أو في الحروب . . وخرق الطبل هو
أكبر إهانة يمكن أن تلحق بالأمير .

والأمير هو الذى يعلن الحرب ويدير خططها وهو الذى يفضى الخلافات بين
القبائل ، وله خليفة يتوب عنه في غيابه . . وهو يتقاضى الضرائب من جميع
القبائل .

وبلى أمينو كال في السلم الطبق شيوخ القبائل ثم الفرسان ورجال الدين ثم
الرعاة ثم الحرفيون وفي القاع نجد العبيد والخدم والجواري .

والحرفيون يعتبرون من جنس مشبوه . وهم يتهمون بالتجسس أحياناً وبالخيانة ولكن لا أحد يجزؤ على قتل حرفي لأنه يخشى من انتقام الجن لروحه .

والحرفيون أذكاء وحكماء ، وفيهم من يتقن الكتابة ومن يلقي الأقاصيص والحكايات وبعضهم يرقى إلى درجة مستشار الأمير .

وهم يتلثمون كبقية الطوارق ، ولكن لهم لغة خاصة سرية يتخاطبون بها .
ولهم تعاويذ وطقوس خاصة . . وهم لا يزيدون في مجموعهم عن خمس أو ست عائلات .

والمعتقد أنهم من أصل يهودى وأنهم مهاجرون من فلسطين ، يدل على ذلك تلك المطروقات الفضية الأنيقة الراقية والمفاتيح والأقفال المعقدة التي يصنعونها والتي لا تتناسب مع الحياة البدائية التي يعيشها الطوارق ، وتدل أيضاً عاداتهم العنصرية في عدم الزواج من خارج جنسهم .

واسم هذه الفئة العاملة باللغة التارجية « ايتادين » أى (من لا اسم لهم) وهذا إيمان في تحقيرهم .

وبعض قبائل الطوارق غنية نسبياً . ففي قبيلة مثل كيل هجسار أكثر من عشرة آلاف رأس من الإبل ، وفي قبيلة أخرى مثل داج رالى لا تزيد الإبل على ألف رأس ، بينما قبيلة ثالثة هي التأتوك لا تزيد ثروتها على ثلاثمائة رأس .

والطوارق يعتمدون في حياتهم على الرعى والصيد متنقلين من ودا إلى واد إلى حيث تجود المرعى ويكثر المطر ، وأهم محصول طبيعي يتاجرون فيه هو الملح ، يحملون به القوافل إلى السودان لتعود بالتالى محملة بالآفنة والحبوب . فإذا شح المطر وجف المرعى انتشروا في الصحارى والجبال يقطعون الطريق على القوافل . . فإذا استمر الجفاف نزحوا إلى السودان .

وهم في الشتاء يفضلون سكنى الوديان المنخفضة في أحضان الجبال التي تحميهم من الرياح . . وفي الصيف يفضلون سكنى الأعالى والقمم حيث الجو طليق .

وكل قبيلة لها مضارب خيامها ولها مجالاتها الخاصة التي تتحرك فيها وهي تعود من موسم لموسم لنفس الأماكن التي بدأت منها .

والخيام تصنع عادة من جلد الماعز ، يدهن بالزبد وبمادة حمراء لوقايتها من الشمس والمطر .

والمعتاد أن ينام الرجل في شرق الخيمة ومعه الأولاد بينما تنام الزوجة في غربها ومعها البنات .

ولا ينام على سرير إلا الأمير وشيوخ القبائل .

أما المطبخ فهو دائماً خارج الخيمة وهو عبارة عن موقد حوله بعض الطوب والحجارة لحمايته من الريح .

وهم لا يستخدمون حجارة البازلت السوداء لأنهم يعتقدون أنها مسكونة بالجن والسبب أنها تفرقع بصوت شديد بتأثير النار .

والنار عند الطوارق لها أسطورة مقدسة . . فهم يقولون أن النار خلقها الله للإنسان ليطهى عليها طعامه ولكن الشيطان عزف سرها وسرقها ثم أعطاها لصديقه الحداد ليصنع بها الحديد ولهذا خلق الله الجحيم وخصصها للشيطان عقاباً له على سرقة .

وهم لا يوقدون النار في داخل الخيمة وإنما دائماً خارجها .

والأثاث عبارة عن صندوق ومخللة بها ملابس وعدة أطباق وملاعق خشبية وأوتاد لتثبيت الخيمة وإناء للماء وطاسة لحلب اللبن وأكواب وفناجين .

والمرأة هي التي تنصب الخيمة وهي التي تفكها وتحملها على الحمير وهي التي تصنع الأدوات الجلدية والأطباق والأوتاد الخشبية . . وهي تستعمل في تنقلاتها الحمار ولا تتركب الإبل إلا من كانت زوجة لفارس أو أمير .

وكل قبيلة تخزن ما عندها من فائض التمر والحبوب والمواد الغذائية في مخاي وكهوف بالجبل ، وعندهم عقيدة أن الله يرعى هذه المخاي ، ويسهر عليها بنفسه . . وهم يهاجرون ثم يعودون إليها فيجدونها على حالها ، فالتارجي لا يد يدأ أبداً إلى مثل تلك المخاي . . وعقاب السارق في مثل تلك الحالات شديد .

وهناك أكثر من ستة أصناف من الأعشاب الجبلية والجذور مما يأكله التارجي أثناء الطريق هو ومواشيه ليهدى جوعه .

واللبن والزبد والجبن والحبوب والتمر هي غذاؤه الرئيسي ، وهو يأكل اللحم في حالات قليلة حينما تشرف إحدى مواشيه على الموت فيذبحها وحينما تحف المراعى فيذبح الناقة التي يراها تموت جوعاً أمامه . . وهو يأكل الأرانب والغزلان والجراد . . والجراد المشوى طعام فاخر عنده . . أما لحم الدجاج فيعتبر نجسا مثل الخنزير وبالمثل السمك . .

ولا يجوز أكل ذبيحة لم يقرأ عليها اسم الله ولم تذبح وفقاً للشريعة الإسلامية ، وواضح من أنواع التحريم أنه يجمع بين التحريم الإسلامي والتحريم الوثني .

والأكلة الشعبية هي نوع من العصيدة باللبن .

وهم يستعملون الجبن المجفف والطاطم والبصل في تصنيف ألوان من الصلصات . وفي حفلات الزواج والحفلات الدينية تذبح ناقة وتشوى على النار وتقدم مع الكسكسي وتحفظ الرأس والعنق للنساء ، ويقدم الفخذ والموزة والضلع للضيوف .

وهم يأكلون بالملعقة . . وعادة الأكل بالملعقة عادة غريبة بالنسبة للحياة البدائية التي يجهاها التارجي ، ولكن تفسيرها هو حرصه على عدم رفع اللثام أثناء الأكل وبالتالي احتياجه إلى وسيلة كالمعلقة لدس الأكل في فمه .

والإبل والماعز والماشية والحمير والكلاب هي الحيوانات التي يربها التارجي .

وهم في العادة يختمون إبلهم بعلامات خاصة ، كل قبيلة لها علامة مميزة تختمها على رقبة الجمل أو فخذ بظلاء أحمر .

ورأس إبل عندهم أثن من وزلة ذهب ، أما الحمير فلا يهتمون بها ، وأحياناً لا تعرف القبيلة عدد حميرها وأحياناً حينما يشح المراعى تترك القبيلة جزءاً كبيراً من حميرها وترحل .

وهم يصطادون الغزال وبقر الوحش والزراف . . يخرج أربعة من الطوارق معهم عشرة كلاب في فرقة صيد ويطاردون الفريسة حتى تسقط إعياء ، وهي في حالة الغزاة وسيلة كافية ، أما بقر الوحش ، وهو حيوان شديد البأس ، يدافع عن نفسه حتى الموت فيحتاج الأمر إلى حصار وقتال بالحراش أحياناً يذهب ضحيته عدد من الكلاب أو الصائد نفسه .

ولكنهم الآن يستعملون البنادق في كل شيء بدرجة تهدد وحوش الصحارى بالانقراض .

والتقاليد المتبعة إذا طاردت قبيلة حيواناً في أرض قبيلة أخرى واصطادته أن تعطى جلده ورأسه ونصيباً من اللحم للقبيلة صاحبة الأرض .

والطوارق رحل لا يزرعون الأرض احتقاراً للعمل اليدوي واحتقاراً للاستقرار ولكن في بعض الأماكن حيث يغزر المطر وتكثر العيون الجوفية تجد

التارجي يزرع القمح والشعير والجزر والعدس والبصل والبطيخ والتبام .
وتجد حدائق من التين والعنب والتفاح .

لكن مثل تلك المزروعات تصبح تحت رحمة الحر والبرد والعواصف
والسيول والجفاف وجذب الأرض واقتنارها مع تكرار الزراعة . . والتارجي
ليس عنده طول بال الفلاح ولا ضيره . وهو ما يلبث أن يهجر الأرض التي
أجدبت دون أن يفكر في إصلاحها .

وهو حينئذ يزرع قليلاً لا لبيع .

وسعادته وهو يضرب في القلوات تعدل محصول ألف فدان . . يكفيه ما يحلب
من ألبان إبله وما يقطف من بلح وتمر في الطريق وما تجود به المرعى . فإذا
جف فأرض الله واسعة .

وليست من عادة التارجي الاغتسال يومياً بسبب شح الماء في الصحارى .
وهم يقولون أن الاغتسال يومياً ضار بالبشرة وهذا صحيح نظراً للملوحة المياه
وجفاف الجو كما أنه يؤدي إلى تشقق الجلد . . وهم لهذا يستعملون الزبد
للتنطرية . . ويتوضأون للصلاة بطريقة التيمم (بالرمل الجاف بدون ماء) .

ولكنهم شديدو العناية بأسنانهم فهم يستعملون السواك والمضمضة بالماء عدة
مرات بعد الأكل .

وهم يخلقون للأطفال رهوسهم الا خصلة يتركونها في الوسط .

والنساء يصفرن شعورهن صفائر كثيرة على الجانبيين ويستعملن الزبد
للشعر .

والنساء والرجال يخلقون شعر العانة ويقصون أظافرهم ويكحلون عيونهم .

ومخلفات الشعر والأظافر تدفن في مكان بعيد حتى لا يستجر عليها أحد أو يقرأ
عليها تعاويذ مهلكة .

والوشم غير معروف لكن المرأة تستعمل الأحمر للزينة .

وفي المهرجانات قد تجد امرأة تنقش على وجهها رسوماً عجيبة (طريقة
الهيبي) . وترقص كنوع من التهريج أو كبقايا طقوس وتبية .

والمرأة التارجية أقصر من الرجل وأكثر سمرة واستدارة وهي ذات عيون
واسعة كحيلة وجهية عالية ويدين دقيقتين رقيقتين . . والسمنة عنصر هام في
الجاذبية الجنسية عند النساء وهن يتوسلن اليها بكل طريقة ويأكلن أنواعاً
خاصة من الأعشاب يعتقدن أنها تسمن (كالمفتقة عندنا) .

علاج
الامساك
بتسجير
الاجرجر

والأمراض عندهم قسمان : مرض جسدى يعالج بالأدوية ، ومرض روحى يعالج بالسحر « أمى كيللو » .

وعلاج من تليسه الأرواح الشريرة هو إلقاء الرعب في قلبه عن طريق رقصة خفيفة بالأقنعة تتخللها الصرخات والطبول حتى يفقد الوعي ويدخل في غيبوبة تخرج أثناءها الروح الشريرة وتفر مذعورة ولا تعود .

وهم يمارسون الجراحات البسيطة كالطهارة وعلاج الجروح وتجبير الكسور والقطع الحادث بعد الطهارة يدهن عادة بالزبد .

والأنافة وحسن المظهر مسألة غاية في الأهمية بالنسبة للتأرجى . . أهم من الطعام أن يتأنق ويختال . .

والطوارق أصحاب قامة طويلة وفرع باسق وأكتاف عريضة ، وهم يرفعون رموسهم في اعتزاز حينما يمشون كأنهم أمراء أسطوريون . ويلبس الواحد منهم سروالا واسعا يغطي قدميه ، وفوق السروال عباءة فضفاضة بيضاء أو زرقاء أو ملونة ، وعلى الرأس تلبية تلتف كالعمامة وتغطي الرأس ثم تسدل كاللثام فوق الفم والأنف فلا يبقى ظاهرا منه إلا العينان السوداوان البراقتان . . وفي القدمين يلبس صندلا .

والرجل يتجلى بالخواتم الفضية المزركشة والأساور المنقوشة من حجر الشيسيت . . وعلى الأساور يكتب عادة عهدا بالوفاء لمحبيه أو دعوة بالقوة والتوفيق في القتال . .

وهم يتنافسون في حمل الأكياس الجلدية الأنيقة . . جراب جلدى للولاعة . . وجراب جلدى للسواك . . وجراب جلدى للإبر . . وجراب جلدى فيه آية قرآنية أو تعويذة . . يحملها في سلسلة مدلاة على صدره . .

الطوارق أطباء بالفطرة .

وهم يطيبون المرضى بالفصد والكى والحقن الشرجية والعلاج بالأعشاب . وعندهم ما يشبه تذكرة داود وعلم غزير بالأعشاب القابضة والمسهلة والمخدرة والمدررة للبول والمقوية للقلب ، ويستعملون الورق المغلى والمجفف والمسحوق والبذور والجذور بقطنة رجا . . وصلت إليهم عن طريق العرب .

وهم يستعملون لبن الحمير كعلاج للسعال .

ومجففون شجرة الأجرجر ويدقونها ويستعملونها علاجاً للإمساك .

ويداؤون الإنسعال بشجرة النبق .

وبالنسبة للنساء هناك تصانيف أكثر من الحلى . . هناك خواتم من الفضة كبيرة ذوات القصوص وأحياناً بدل الفص نجد علية صغيرة للعطر . . وتلبس المرأة اثنين أو ثلاثة من هذه الخواتم الكبيرة في اليد الواحدة . . وهي دائماً من الفضة . . لأن الذهب مكروه عند الطوارق ولا أحد يتحلى به لأنهم يعتقدون أنه مجلبة للشرب والطمع .

وهناك رواية يرويها مؤلف من تمبوكتو عن رئيس الطوارق (أكيل) الذي كان يرفض أن يلمس الذهب بيديه لأنه يجلب النحس .

والأساور المنقوشة من الفضة والحللة بقصوص اللؤلؤ . . والأساور الزجاجية والأساور الجلدية المحلاة بقصوص كريمة . . والقلائد التي تتدلى من العنق وفيها فص من العاج . . والكردان . . والبنتنيت ذو الفص الأحمر من المرجان . . والدلايات الفضية المزركشة . . كلها حلى ضرورية بالنسبة للمرأة . . والحلق يكون عادة من الفضة وكبير ويتدلى على العنق .

وفي الشعوب والصفائر حلى أخرى تتدلى على الظهر . . هذا عدا الأحذية الفضية وجراب الكحل وجراب الإبر .

والنساء لا يلبسن هذه الحلى إلا في الأفراح والمهرجانات .

أما في الأيام العادية فتودع هذه الحلى في صناديق ذوات أقفال حديدية يحمل التارجي مفتاحها في حله وترحاله .

والمرأة التارجية صانعة ماهرة . فهي التي تسليخ الجلد وتدبغه وتصقله وتصنع منه الخيام والحلى الجلدية والصنادل والحقائب . . وهي أيضاً التي تصنع من الخشب أوتاد الخيمة والصحون وأواني الحليب . . وهي التي تصنع من القش القبعات والمخصر . . وهي التي تغزل من فراء الماشية الحبال المشبة .

وهي تؤدي عملها دائماً بدرجة عالية من الدقة والتفنن .

والفتيات ذوات المثبت العريق يتفاخرن بما تصنع أيديهن من تلك الأدوات ولا يتركنها للعبيد . وإنما يصنعنها بأيديهن ويقدمنها هدايا حب لأصدقائهن . وصناعة الجلد والخشب والقش والصوف هي الصناعات التارجية الأصيلة ولها تقاليد وأسلوب وخصائص وملامح مميزة .

أما الحدادة وصناعة المطروقات وتشكيل الفضة والنحاس وصناعة الأقفال والمفاتيح والولاعات فيختص بها « الابتدادين » كما ذكرنا ، وهم من أصل يهودي . . وهم يعتمدون على صهر العملة الفضية كمصدر لحام الفضة . . أما الحديد فمن صهر الحردة والعلب الفارغة التي يجمعونها من الطريق . . والنحاس من صهر الخرطوش الفارغ . . ويصنعون منه الأقفال والسكاكين والإبر والملاقط والأدوات الدقيقة .

أما الأسلحة فهي مستوردة في أغلب الحالات . . لكن بعض القبائل التي تسكن في أماكن يوجد بها خام الحديد بكثرة تشتغل بتعدين الحديد وتصنع الخناجر والحراش والأسلحة .

أما صناعة الفخار فقد استخدمها العبيد . . وهم الذين أدخلوها للطوارق . . وهم الذين يصنعون الطواجن الفخارية والأواني المختلفة .

ونظام القوافل في الطوارق يختلف عن نظام القوافل عند العرب . فالطوارق يركبون دائماً في مقدمة قوافلهم لاستكشاف الطريق ويتركون وراءهم مرشدين يوجهون الإبل للاحتفاظ بالصف (والسبب هو ارتفاع وهبوط وتخرج الطرق الجبلية) . .

يبدأ يركب العرب في مؤخرة قوافلهم ويتركون الإبل شبه حرة دون مرشدين

لسبب واضح أنهم يسكنون فلولات منبسطة لا عوائق فيها وهم لهذا يكشفون الطريق كله من مكانهم في المؤخرة ويوجهون خط السير دون صعوبة تذكر ويدعون القرصة للإبل لتنتقل وراء العشب كيفما شاءت دون قيود الصنف . فالأعشاب شحيحة ومتفرقة في الصحارى وليست بالكثرة ولا التركيز كما هي في الوديان الجبلية . .

والطوارق أحياناً يؤجرون لحراسة القوافل التجارية مقابل نصيب معلوم من البضائع . وأحياناً يعطون الأمان لقافلة تمر في أراضيهم مقابل ضريبة محددة . وأحياناً يقدمون إبلهم ومرشديهم للقوافل مقابل عمولة . . وهي مناسبات تشكل لهم مصادر سخية للدخل .

ولم تكن هناك عملة مضكوكة خاصة بالطوارق . . وإنما كانوا يتعاملون بالمقايضة ويعتبرون مقطع القماش وحدة للتبادل . . ولكن الجنيه التركي الذهب كان عملة مقبولة .

والقاعدة عند خروج الطوارق بقوافلهم للمقايضة في السودان أنهم يتركون النساء والشيوخ والأطفال في مضاربهم ولا يخرج للترحال إلا الرجال القادرون .

وقطع الطريق على القوافل السرقة والسطو هو عادة بعض قبائل الهجارة وليس كلها . والفرسان يحكون عن هذه المغامرات في مجال التفاخر والزهو أمام النساء . . وهم يقومون بها بدافع سلب الحلى والثياب الجميلة لإهدائها للعشيقات والحبيبات .

والصيف هو الموسم المختار لمثل تلك المغامرات لأن الجفاف والحر وشح المرعى يدفع القبائل للتفرق بحثاً عن العشب .

وتوضع الخطة في المساء ثم يخرج الرجال في اترحال سريع بغية انقضاضة مفاجئة قبل الفجر على خيام القافلة .

وبعد معركة سريعة يفر الحراس عادة ، فيقود اللصوص الإبل ثم يدخلون الخيام ويجمعون ما يجدون من حلى وثياب ويفرون .

ويحدث عادة أن تنقض القبيلة المعتدى عليها في هجوم مضاد يرصدون له كائن خاصة عند الآبار التي يعرفون أن اللصوص سيردونها في طريق العودة . ويحدث الالتحام ويقع قتلى وجرحى كثيرون .

وأحياناً يحدث اتفاق سلمي وتدفع القبيلة المعتدى عليها ضريبة محددة من الإبل والثياب في مقابل تسوية معقولة .

وقطع الطريق على القبائل السودانية يكون عادة بهدف خطف البنات والأولاد لبيعهم في أسواق النخاسية أو استخدامهم كعبيد .

أما الحروب المنظمة بين القبائل فأكثر ندرة من حوادث قطع الطريق وهي تحدث عادة لأسباب سياسية . . تنازع على السلطة أو خلاف حول المراعى . وهم يختارون الشتاء موسماً لحروبهم حيث تكون كل قبيلة قد جهزت نفسها مخزين من التكوين والمواد الغذائية .

ومن تقاليد الحرب ألا يعتدى على النساء الأسرى .

والاعتداء على امرأة أسيرة وضمة عار لا تمحى في جبين المعتدى وقبيلته . . وكثيراً ما حدثت سلسلة من الحروب الانتقامية بسبب مثل هذا الحادث .

والأسلحة المستعملة في الحروب هي السيوف والخراپ والخناجر والبلط . أما العبيد فيسلحون بالعصى ولا يحمل الدروع إلا النبلاء والرؤساء والقواد .

وقد دخلت البنادق والمسدسات والرساتبات الحروب القبلية بعد دخول
الفرنسيين .

وأول رحلة غربي اكتشف الطوارق هو الإنجليزي جوردون لانج ١٨٠٠
الذي بدأ رحلته من طرابلس إلى تمبوكتو عابراً اغدامس وفي الطريق تعبرف
على الشيخ عثمان « شيخ منطقة الزاوية » الذي دله على مسالك الصحراء .
ولكنه قتل قبل أن يتم رحلته . قتل الأتلام العرب الذين كانوا يرافقونه .

وفي سنة ١٨٤٩ استطاع الألماني هنري بارت أن يتم الرحلة التي لم يستطع
زميله الإنجليزي إقامها . فوصل إلى تمبوكتو ثم عاد إلى طرابلس ماراً بكل
قبائل الطوارق في المنطقة . . . وبذلك دخل التاريخ مع الرحالة العظام أمثال
لفنجستون وستانلي وبرازا .

وأول مرجع واف عن الطوارق هو ما كتبه دوفيرييه الفرنسي في رحلة
استغرقت ٢٨ شهراً ، وافقه فيها الشيخ عثمان والرئيس التارجي أخنوخ .

وقد حدث بعد ذلك أن دعا دوفيرييه الشيخ عثمان إلى باريس وقدمه إلى
نابليون الثالث .

وأعقب هذا اتفاق تجارى بين الفرنسيين في الجزائر وبين الطوارق . . .

وبعد ذلك بدأت المقاومة . فرفع الطوارق المسلمون شعار « لا كفار
ولا مشركين في بلادنا » . . . وبدأ التقتيل بطارد كل بعثة فرنسية تحاول اختراق
الصحراء .

وتوقفت البعثات عشرين عاماً .

وفي عام ١٨٩٩ عاد الرحالة فوريد ومعه ثلاثمائة رجل مسلح ليقنجم قلعة
الصحراء . . . وهذه المرة استطاعت البنادق الحديثة والمسدسات المتعددة

الطلقات أن تفتح القلعة ، ورفع فوردي العلم الفرنسي على واحدة عين صالح
وأعلن احتلالها .

وحاول الطوارق بقيادة « تيت » الهجوم على الفرقة الفرنسية ولكنهم عادوا
وقد تركوا وراءهم سبعين قتيلاً .

وبعد ذلك بدأت القبائل التارجية تعلن خضوعها واحدة بعد أخرى .

اللغة
البربرية
و
البربر

وأمام الظلم والاستعمار يهب الكل . . كما يهب غوما العربي يهب أخيا
التارجي وينتفض سليمان الباروني البربري .

وقد عرفت القاهرة سليمان الباروني حينما كان يصدر جريدة الأسد
الإسلامي .

وقد أطلق سليمان شعر لحيته ورأسه وأقسم ألا يحلقه إلا حينما يخرج آخر
جندي إيطالي من أرض الوطن . . وقاد الكفاح الليبي ضد الاستعمار الإيطالي
وسافر إلى تركيا ثم الهند ثم توفي في بجاي وما زال له فيها قبر يزار .

وفي اللغة البربرية يستعمل حرف (ت) للتأنيث كما في العربية :

ديك : زبيط

دجاجة : تزبيط

حصان : أجمار

فرسة : تجمارت

وفي نصريف الأفعال يضاف حرف (و) ليدل على الماضي ويضاف حرف
(أ) ليدل على الأمر وحرف (س) للمستقبل كما في العربية .

يقتل : يناغ

قتل : ينغو

سيقتل : سينغ

أقتل : أنغ

وهناك شواذ مثل فعل يأكل وفعل ينام :

بطول الشمال الأفريقي . . في ليبيا في جبل نفوسة وزواره وفي جنوب تونس
وفي وادي مزاب بالجزائر نجد اللغة البربرية والبربر .

وقد رأينا أن اللغة البربرية تدخل في تكوين اللغة التارجية وتدخل في
تكوين اللغة الغدامسية وتدخل في لهجات سكان الدواخل الليبية .

وقرأنا في التاريخ أن البربر هم أصل الطوارق ، وفي إحدى النظريات أنهم
أصل الفراعنة أيضا .

وقد استطاعت الصخرات الليبية أن تذيب العرب والطوارق والبربر في
سبيكة واحدة متناسقة ذات وحدة وطنية .

الكلمة العربية	الكلمة البربرية
الأبيض	مل لل
الأسود	زطف
الأحمر	ازفاغ
الاصفر	أوراغ
أنا	نيتش
هو	نيت
أنت	شك
هم	نيتن
يأكل	تيت
ينام	يططس
يشرب	يساو
يقتل	يناغ
العصفور	الشمشيو
الدجاجة	نيازيط
الصقر	ابرفي
الأقمى	تليفساء
العقرب	تقاردنت
العنكبوت	أرتيلت
الدودة	تكيشتا
الثور	قوناس
البقرة	تقوناسيا
حمامه	تاجحات
الصقر	ابرفي
الكبير	أزعلوك
الصغير	أمران

يأكل : يتت

أكل : يتشو

كل : انش

سوف يأكل : سايش

وفي فعل ينام يستخدم التخفيف فيحذف حرف (ط) للدلالة على الماضي :

ينام : يططس

نام : يطس

سينام : سيططس

نم : اطس

وللجمع يضاف حرف (ن) :

جمل : الغم

جمال : ايلغمن

حصان : اجمار

أحصنة : اجمارن

ديك : زبيط

ديوك : أيزيطن

ذئب : أوشن

ذئاب : أوشانن

ومن الأغاني الشعبية البربرية التي يغنونها في الأعراس مثل أغنية « مبروك عليكى يا عروسة » عندنا . . هذه الأغنية وكلماتها بالعربية :

رأيتها نائمة وشعرها متناثر حولها

والأسطورة تلعب في يدها

كانت متكئة

ونظراتي تحجج إليها

كما تحجج نظرات المؤمن إلى مكة

بل أكثر . . استغفر الله

رأيتها تسير

وعودها يشاب كالسفينة

معبأة بكل ما يخطر ببالك

من عنبر وعطور وطلع جميلة

وكلماتها بالبربرية :

زر يقطط ططس

لفط يتنس بمحل وس

أدبلج دوفستس ييجص

زر يقطط تنكا

ديس انتتحت خزان مكا

لا يتل ما يلبغ

زر يقطط تيجور

الجدنس أمالباور

يا سياسسلعت يشور

أهلا تملد يلا ديس

والأعراس الشعبية لها تقاليد طريفة عند البربر .

أول يوم في الفرح ويسمونه فرش الحصيرة « إيساين جرتيلت » يطلقون الزغاريد والبخور وتغنى فرقة من العبيد « وكل المغنيات والراقصات عبيد سود وليسوا من البربر وهم نسل الرقيق القديم الذي اعتنق وظل يخدم سادته وينوارت هذه الخدمة أبا عن جد » ، والبربرية الأصلية وهي عادة بيضاء وأحيانا شقراء لا تغنى ولا ترقص وإن كانت بعضهن زجالات وشاعرات . وفي اليوم الثاني من الفرح تقدم الصرة وبها الكسوة والخنة والسواك والبخور تحملها جارية في موكب زغاريد من بيت العريس إلى بيت العروس .

وفي الليل تقام حفلة ساهرة في بيت العريس . . . رقص وغناء وزغاريد . . ثم يتقدم أحد المغنين العبيد ويعدد محاسن المعازيم على الطيلة في مقابل النقطة « ايريج » وفي ثالث يوم وهو يوم مشهود يشرف السلطان « العريس » في المساء مع حاشيته ويجلس وعند قدميه يجلس عبيد . . وفي نفس الوقت تشرف السلطانة « العروس » لتجلس مع أترابها من البنات .

وتطول جلسة السلطان وهو يتلفت حوله في الألاطة (وهذه الألاطة جزء من التقاليد) ، ثم يمد يده إلى العبد الجالس عند قدميه فيعطيه زجاجة عطر ويمسحه منحة مالية وبذلك تفتتح الحفلة ويبدأ الرقص والغناء .

وفي الليل تسير السلطانة في زفة وتعمل لفة على قدميها في البلدة على ضوء المشاعل وأنغام وزغاريد فرقة العبيد . . والأغنية التي يرددونها في تلك المناسبة :

بالا أيا نروح

تدرتار تام طوح

ومعناها . . هيا يا سيدتي . . اسرعي الخطو فإلى بيت بعيد .

وفي ليلة الدخلة يسير موكب يتقدمه أقرباء العريس إلى بيت العروس ويأخذون السلطانة إلى بيت عريسها . . وأثناء الطريق يطوق العبيد الموكب ويحجبونه بلامعة كبيرة تخفيه عن أعين الفضوليين .

والبربرية لا تزوج إلا بربريا .

والحب العذري عندهم موجود ولكنهم محافظون جدا إلى درجة التزمّت . فإلبنت تختفي وراء حجاب ولا تختلط بالرجال ولا يستطيع أن يختل حبيبان في خلوة . . والتعارف لا يزيد على نظرات مختلسة .

والأم هي التي تستطيع وتختار لابنها ثم يتقدم الأب ليخطب ويكتب الكتاب بهر رمزي ٢٥ قرنا كما هو متبع في الشرع ثم يشترك الزوجان في الأثاث والجهاز .

وبالنسبة للموت تكتفي المرأة بوضع وشاح أسود حول رأسها لمدة أربعة أشهر وأحيانا وشاح أحمر « افكاي » . وتجتمع النساء في مجموعات ليكن « دموع الرحمة » ويشترك الجيران في جلب الطعام لأهل الميت ليأكل المعزون . . وفي اليوم الثاني تذبح ذبيحة توزع على الأهالي وتلى الحتمة لمدة ثلاث ليال « ايمغران » .

والمجتمع البربري مجتمع استقرار يعتمد على الزراعة (الحبوب والزيوت والتين والرمان) . وهناك صناعات غزل وصناعات جلود وأحذية يحترفها بعض البربر . . ولكن صناعة الحدادة تتوارثها أسرطان كلها غير بربريتين .

وطبقة الصفوة الرائدة هم الموظفون الإداريون وفقهاء الدين ويسمونه « العزابة » . وهم الذين يقومون بالإفتاء وتعليم القرآن والشريعة وكتابة عقود الزواج والطلاق .

وهناك قلة من كبار الملاك .

ومستوى المعيشة مرتفع نسبيا بين البربر والإقبال على التعليم كبير لأن كل واحد يحلم بأن يصبح « عزابة » .

والبوتاجاز والنلاجة والتليفزيون والترايزستور والكاديلاك والبويك دخلت جبل نفوسة .

أما العبيد والسود فيؤلفون طبقة داخل بعضهم ، تحترف الزراعة والرقص والغناء والخدمة في البيوت .

ويغنى السود في أعراسهم أغاني تكشف عن ماضيهم الطويل الأليم .

باباي من كاوار

وأمي خادم

واللي جرى لي ما جرى لبن آدم

باباي من كاوار

وأمي حرة

واللي جرى لي ما جرى للضره

ولكن بعض السود المحظوظين استطاع أن يتعلم في الجامعة .

وبعضهم دخل الجيش والبوليس .

ولا يوجد مسيحيون بين البربر .

وكلهم محافظون إلى درجة التزمّت .

وهم يتبعون المذهب الأباضي .

والمذهب الأباضي يختلف في بعض شكليات قليلة عن المالكي والتنافعي والحنفي ، مثلاً عندهم لا يد من البسملة مع كل سورة .

والضلاة تبدأ بدون رفع اليدين إلى جانبي الرأس .

والنشيد بدون حركة الأصبع .

والخلافة تجوز من خارج البيت الهاشمي لأن شرطها هو الكفاية الخلقية

والدينية وليس الدم الهاشمي .

وفي نظرهم أن علي بن أبي طالب أخطأ حيناً قبل التحكيم في واقعة الجمل .
وقد ثبت أن الموقعة حدثت بين جيش معاوية وجيش علي . . واكتشف معاوية
بذكائه أن فرصته في النصر قليلة فأمر برفع المصاحف على أسنة الرماح وطلب
التحكيم .

وفي نظر الأباضية أن علياً أخطأ بقبول التحكيم لأنه صاحب حق في
الخلافة . وبصرف النظر عن هذه الفروق الشكلية فإن البربر شديدي الإيمان
وشديدي التمسك بأخلاقيات الإسلام ، وهم ودعاء أمناء قليلاً يصل بينهم شجار
أو خلاف إلى درجة البوليس ، لأنهم يحلون أكثر مشاكلهم على المستوى العائلي
وعندهم كلمة « رجل جبالى » مرادفة « لرجل أمين » .

الحروف الأبجدية البربرية (التيفيناغ) وهي تشبه الحروف النارجية

ل	⋮	⊙	⊙
خ	⋮	⊙	⊙
ش	⋮	+	+
ح	⋮	∧	∨
ط	⋮	⊥	⊥
و	⋮	⊥	⊥
ی	⋮	⊥	⊥
یشت	⋮	⊥	⊥
یفت	⋮	⊥	⊥
یست	⋮	⊥	⊥
یرت	⋮	⊥	⊥
ینک	⋮	⊥	⊥
یضت	⋮	⊥	⊥
ینت	⋮	⊥	⊥

الحروف الأبعدية الفينيقية وهي تشبه الكتابة البرية

[illegible]

ابناء
نوح

مصاريم أنجب الفراعنة ..

وفلسطين أنجب الفلسطينيين القدماء .

وكنعان أنجب البربر .

وكلمة بربر جاءت من الجد الأكبر بربر بن غلا بن مازيغ بن كنعان بن نوح .

وجاء البربر في هجرة من الشام إلى شمال أفريقيا ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح أي قبل التاريخ .

وكان الرجل منهم يسكنون الخيام من الشعر والوبر وبعض الذين استقروا على الزراعة في الوديان كانوا ينحتون بيوتهم في الجبال وينقرون في الجبل غرفات كاملة يرافقها وما زالت بعض هذه البيوت المنحوتة باقية في جبل نفوسة وفي جنوب تونس وجبال الأوراس .

وكان دين البربر القديم هو أمون ومظاهره الشمس والقمر والكيش ذو القرنين وكانوا يقدسون الحمامة والطاووس والقط والضفدعة والسلحفاة .. وكانوا يعتقدون أن قتل هذه الحيوانات يصيبهم بالشلل والجنون والعاهات .

وما زالت عقيدة تحريم صيد الحمام باقية إلى الآن في أنحاء كثيرة من المغرب .

واعتقد البربر في الجن والأرواح التي تسكن النباتات الحارة .

وكانت الأم عندهم مقدسة وكانت تحكم على القبيلة وتسوس الرجال .

وكان الابن قديما يتسب لأمه بالأبيه .

وإستخدموا لغة منطوقة ومكتوبة هي اللغة البربرية .. واللغة المكتوبة سموها

« تيفيناغ » وهو نفس الاسم المستخدم في اللغة التارجية .

في كتاب العبر لابن خلدون يروي لنا ابن خلدون عن شجرة عائلة نوح وأولاده قائلا : ان نوح أنجب ثلاثة أبناء هم سام وحام ويافت .

أما فرع يافت فهو الذي جاء منه سكان شمال أفريقيا الذين استوطنوا هذا المكان من العالم قبل البربر وهم أجناس ما قبل التاريخ الذين يطلق عليهم الكروماجتون . ويقول عنهم ابن خلدون أنهم كانوا يعبدون الشمس والقمر والكيش والقرد والثور وكانوا يدفنون الميت في وضع جنيني لاعتقادهم بأنه سوف يبعث كميلاد الجنين من بطن الأرض .

أما فرع نوح الثاني « حام » فهو قد أعطانا ثلاثة أبناء هم مصاريم وفلسطين وكنعان ..

وترجمة كلمة تقييناغ . - الحروف المنزلة من عند الله .

وأكثر الكلمات البربرية تجددها في اللغة التارجية بنصها .

وحينما دخلت اللغة العربية مع الإسلام شرع البربر في بربرة الكلمات العربية بإضافة التاء إليها :

الدار تدارت

الحانوت تاحنوت

الغاية الغايت

الجنة الجنة

وهناك أمثلة شعبية بربرية تشبه في المعنى أمثلتنا العربية :

انفسى تشورداست - يلا في العضم في الكرشة

ويدهكلن يطاود - من صبر ظفر

اشرم وليتو ابني دبواس - الدنيا لم تبين في يوم

طيطس أنا وساعت - أبو عين فارغة . - أبو عين جريئة

تالويت سوزاف الابلاسيقنطارن - الشفاء بالدرهم والمرض بالقنطار .

وقد أقام البربر دولة بربرية كبرى كانت تشمل ليبيا والمغرب وموريتانيا . وحفظ لنا التاريخ أسماء ملوك عظام أمثال صفاقس ومصنيا ويوغورطة ويوبا .

وقد غزا الرومان الدولة البربرية وأسروا ملوكها وساقوهم مكبلين بالحديد في شوارع روما وجندوا ألوف البربر في جيوشهم بالسخرة .

ويروى لنا التاريخ المعارك بين يوليوس قيصر ويوبا .

ومزقت الدولة البربرية . . ولكن ظلت المقاومة تندلع من برابرة الجبل والثورات تتوالى ضد حكم روما .

ويروى لنا التاريخ أن أحد الأباطرة الرومان سبتموس سافاروس كان من أصل بربرى وأنه أنصف البربر وسن القوانين بمساواتهم بالرومان في عهده .

وما زال تمثال سبتموس سافاروس قائماً في أحد ميادين طرابلس إلى الآن .

وقد تعانقت الديانات البربرية القديمة مع الديانات الرومانية ، فكلها كانت ديانات وثنية .

وحينما جاءت المسيحية كان البربر أسرع من الرومان اعتناقاً لها ، فقد وجدوا فيها خلاصاً وأملاً .

وفي عهد الامبراطور صوكليسيان أحرق وقتل الآفا من شهداء البربر المسيحيين .

وحينما دخلت روما المسيحية . . أنشأ اثنان من القسس البرابرة مذهباً مسيحياً خاصاً اسمه الدونتسية . . واعتنق الكثير من البربر اليهودية تكاية في الرومان . .

ويروى لنا التاريخ سقوط الحكم الروماني على يد قبائل الوندال (قبائل جرمانية غازية مثل التتار) .

وبعد موجة غزو الوندال تأتي موجة الغزو البيزنطي .

وفي سنة ٦٤٨ وفي حكم عثمان بن عفان يدخل القائد المسلم عبد الله بن سعد على رأس جيش من عشرين ألفاً ليحارب مائة وعشرون ألفاً من البربر بقيادة جرجير البربري وينتصر عليه ويقتله ويدخل الإسلام لأول مرة إلى البربر .

الكلمة العربية	الكلمة البربرية
الحب	غاس
الكراهية	اكراه
الفرح	اسلان
الوردة	تورديت
الشجرة	تشجريت
الطفل	نعنوش
المرأة	تقطوط
الرجل	أرجاز
المقناة	تعذبت
السحاب	اييلم
الماء	أسن
النار	تقاوت
اللبن	أغى
العنب	ذورين
البن	امطكن
الزيتون	أزمور
الخبز	غرون
القمح	يردن
الشعير	طمزين
الذرة	المى
البرسيم	الصفصاء
حصان	اجمار
جمل	القم
ذئب	أوشن
الأسد	وار

ولا يبقى أثر لهذا الطوفان من الغزو الروماني والوندالي والبيزنطي... لا نجد أثرا من
وثنية أو مسيحية أو لغة رومانية أو جرمانية أو بيزنطية برغم سنوات من حكم السيوف...
ويفتح البرابرة أذرعهم للغزاة الجدد لغة ودينا ليصبح الإسلام هو الدين الوحيد والعربية
هي لغة الشمال الأفريق كله.

ونسمع الآن في جبل نفوسة، في مولد النبي، البربر ينشدون المدائح النبوية
المؤثرة بلغتهم البربرية:

باتا عرفت تلقيس... ابن مكة استوفغت ايشركن
عنجال الدين انريس... بيوض الدباغ سيضفا عن
ومضاهها:

ما أشد ما لقي النبي من عذاب
من مكة وطنه أخرجهم المشركون
ومن أجل دين ربه
رحموه بالأحجار حتى نزل دما

كلمة
الله
في
الصحراء

وبواسطة السنوسية صارت نواحي بحيرة تشاد مركزاً إسلامياً هاماً في وسط
أفريقيا .

ويقدر المؤرخ دوفرييه أتباع السنوسية في عام ١٨٧٣ بحوالي ثلاثة ملايين .
ويقول هاملتون إن السنوسي أسس أكبر أخوة دينية في أفريقيا امتدت
فروعها من مراكش إلى الحجاز .

فما هي الدعوة السنوسية ؟

كان ابن السنوسي يرفع شعاراً واحداً هو إعلال كلمة الحق :

تنبيه الغافل وتعلم الجاهل وترشد الضال .

وكانت وسائله هي التقرب الى الله بالعلم والقرآن والعمل الصالح والكفاح
واتباع الزهد وقراءة التسابيع والذكر حتى يصل بالمريد إلى درجة النورانية
والوجد .

ولكنه لم يكن صوفياً منقطعاً ، وإنما كان مبشراً له رؤية اجتماعية . . وفي ذهنه
نظام مثالي عاش يخطط من أجله . .

كان يحلم بإعادة بناء العالم الإسلامي على صورة جديدة .

ومن أجل هذا الحلم أنشأ نظام الزوايا .

وفي أواخر عصره كانت هناك ١٢٦ زاوية منها سبع عشرة في مصر وواحدة
في استنامبول واثنتان في الحجاز وست وستون في طرابلس وبرقة وعشر في
تونس وخمس في المغرب واثنتا عشرة في تونس وخمس في المغرب واثنتا عشرة في
السودان الأفريقي .

الصحراء كانت دائماً محباً عظيماً للحرية والحركات التحريرية وأوكان للشوار
والمفكرين ، احتضنوا فيها أفكارهم حضارة طويلة قبل أن تفرغ زوايا غيرت
وجه الأمة العربية .

وكانت جميع هذه الحركات التحريرية دينية .

السنوسية في الشمال الأفريقي والمهدية في السودان .

في برقة وواحة الجغبوب والكفرة وغدامس كان ابن السنوسي يتنقل لينشر
دعوته بين البدو والبربر والطوارق وقبائل التبو وأولاد سليلان والمهاجرة . .
وأكثر من هذا كان السنوسية يشتركون القبيد والأرقاء صغاراً من السودان
وبربونهم في جغبوب وغدامس حتى إذا بلغوا أشدهم وأكملوا تحصيل العلوم
الدينية أعتقوهم وسرحوهم إلى أطراف السودان لنشر الدعوة بين أبناء
جنسهم .

كل زاوية مبنية على مكان مرتفع حصين لتكون كالقلعة .

ويكل زاوية مسجد ومدرسة ومكتبة وحدائق وأراض موقوفة .

والزاوية ملكية عامة للنظام نفسه هي والأراضي الموقوفة عليها . . وفائض غلات الأراضي إذا كان هناك فائض يرسل للمركز ليرسلها بدوره إلى الزوايا التي يديرها .

وكل فرد من أفراد القبائل يتبرع بحبات يوم وحصاد يوم ودراس يوم في أرض الزاوية ، وذلك لتسهيل العمران دون نفقة .

وكانت الزاوية بمثابة استراحة للقوافل ومركز تجاري ومركز اجتماعي ومحكمة ومصرف وبيت الضيافة وملجأ للفقراء ومدرسة للقرآن وحرم آمن ومدافع وساحة للتدريب اليومي على الرماية وإطلاق النار .

وتجري المسابقات وتعطى الجوائز لأمهر الرماة .

وكان حفر الآبار وبناء الصهاريج واستصلاح الأرض اليور واجب كل زاوية في المكان الذي تقام فيه .

وكان يوم الخميس من كل أسبوع مخصصا عندهم للتسفل بالأيدي . فيتركون الدروس في ذلك اليوم ويشغلون بالتجارة والحداة وغزل الصوف وقلع الأرض ، لا تجد منهم إلا من يكد ويكدح وعلى رأسهم الشيخ السنوسي نفسه .

ولكل زاوية رئيس هو شيخ الزاوية ، ومجلس يضم وكيل الزاوية وشيخ القبائل وأعيان المنطقة .

ومن شيوخ الزوايا جميعهم يتألف مجلس أعلى يرأسه السنوسي .

وهو نوع من التنظيم الهرمي في أسفله قاعدة من الأتباع والمريدين ، يليهم إلى أعلى شيوخ القبائل ثم شيوخ الزوايا ثم الشيخ السنوسي .

ويجتمع المجلس الأعلى للنظر في سير الحركة مرة كل سنة .

واتخذ النظام من برقة مركزاً للدعوة .

ومن برقة اتسع نفوذ السنوسية ودخلت صحراء جزيرة العرب حيث اعتنقها عدد من القبائل كبني الحارث وبني حرب كما انتشرت بواسطة الحجاج في اليمن . . وبنيت الزوايا في المدينة والطائف والحمرات وينبع وجدة .

كانت السنوسية دولة داخل دولة .

وكان السنوسي يحلم بإعادة بناء العالم الإسلامي وتوحيده بتكاثف هذه الخلايا حتى تبثق الأمة العربية في داخل هذا الشكل التنظيمي الجديد من الاشتراكية الإسلامية .

ولكن الاستعمار الإيطالي الزاحف من الشمال والاستعمار الفرنسي الزاحف من الجنوب لم يهمل هذه الحركة حتى توثق عمرتها . . وما لبث أن أطبق عليها بكلاية الحديد والنار .

وفي لحظة وجدت السنوسية نفسها في موقف الدفاع .

وانطلق الرصاص من عشرات الزوايا في أعماق الصحراء .

يقول دوفرييه إن السنوسية هي المسئولة عن جميع أعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجزائر وأنها السبب في الثورات المختلفة التي قامت ضد فرنسا كثورة محمد بن عبد الله في تلمسان وعصيان محمد بن تكتول في الظهرة .

وفي سنة ١٨٩٥ كان علم المقاومة للاستعمار الفرنسي في الجنوب ، في يد

السنوسية وحدهم .

وكان محمد البراقى يجمع الجيوش من الطوارق والبدو والبربر لمقاومة الزحف الفرنسى .

وكانت الأموال والأسلحة تتدفق من التلاميذ والمريدين .

وفى خطاب مرسل من أحد تلاميذ السنوسى إلى مدير غدامس التركى يكتب التلميذ :

« وقد وقع القتال بيننا بالبارود والسيوف حتى كسرناهم كسرة عظيمة وقتلنا منهم نحو ثلاثمائة وستة وثمانين رجلاً وغنمنا من الخيل كثيراً والبنادق بلا عدد والحزنة والإبل والأخبية والحمد لله على ذلك وبركة شيخنا معنا » .

وكانت من تقاليد الطريقة السنوسية مناولة السبحة والسيوف للمريد حينما يتم دراسته ، ويكون ذلك بأن يلبسه الشيخ الحجة أو الخرقة ، وبعد أيام يناوله السبحة ويلبسه السيوف ويأمره بالصلاة بهذا الزى .

وفى أورده المؤرخ أحمد زاده :

« إنه من الواجب على كل فرد من السنوسية ما دام قادراً وغير عاجز أن يكون مستعداً للطوارئ متهيئاً للحرب منتظراً للأمر منفذاً له بكامل طاعته » .

ومما يروى أن رشيد باشا التركى أرسل جواسيسه إلى إحدى الزوايا ، وسأل الجاسوس أحد الإخوان ، وهو محمد البكرى . عما إذا كان بالزاوية أسلحة ، فأجاب البكرى نعم لدينا مخازن من الأسلحة ، ثم قاده إلى أحد مخازن الكتب وفتحها له .

وقد استمرت مقاومة السنوسية للفرنسيين عشر سنوات .

قلت له : كيف تجد الكفاية فى هذه الأعشاب ؟ ..

قال لى : كف يدك عن الأذى ، وطهر لسانك عن الغيبة ، وافتح قلبك للحب يجعل لك الله فى كل عود أخضر من هذه العيدان غذاء كاملاً .

سألته أن يعظنى ..

فنظر إلى فى حياء وغمغم :

قال الله للمسيح : « يا عيسى عظم نفسك فإن اتعظت فعظم الناس وإلا فاستحق منى » . وأنا لم أتعظ بعد لأعظك .

فقلت له : إذن تمنحنى بعض كلمات تكون زادى على الطريق

فقال وهو يرسل نظراته إلى الأفق البعيد :

أصرف كل اهتمامك إلى العلم ، فإن الله لا يعبد إلا بالعلم .

لا تشغل بطلب الدنيا ، فمن يشتغل بطلب الدنيا يبتلى فيها بالذل .

إذا خفت الله خاف منك كل شيء .

احذر صحبة النساء اتقاء على إيمان قلبك .

الاستئناس بالناس من علامة الإفلاس وفراغ العقل وهذا شأن من تراهم على المقاهى .. فلا شيء يؤنس به إلا الحضرة الإلهية والخلوة مع الرحمن .

من لازم الناس أصبح محصوراً فى محيطاتهم وفى هيكل ذاته .

من دعا لظالم بطول العمر أو البقاء فقد دعا إلى معصية .

نقاء السريرة وصفاء القلوب وسلامة النيات ومحبة الخلق والخالق هى رأس العبادة والسعى وراء الشهرة فسادها .

وفي سنة ١٩٠٢ سقطت زاوية بير العلال في أيدي الجيش الفرنسي الذي هدمها وبني مكانها قلعة حصينة.

وفي سنة ١٩١١ تحولت السنوسية إلى الشمال لمقاومة الاستعمار الإيطالي. واستطاعت أن تقاوم الإيطاليين عشرين سنة.

ولكن الصلب والبارود والصناعة الغربية والعلم الغربي استطاع أن يهزم بدو الصحراء.

وفي كل صدام بين الشرق والغرب كانت الصناعة الغربية تحسم المعركة.

حريكة

الرجل

الصالح

أكثر من صحبة الصالحين فإن فيهم الشفعاء .

قلت له :

- ومن هم الصالحون ؟

قال :

- لباسهم ما ستر وطعامهم ما حضر . . أبرار أخفياء ، أتقياء إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يعرفوا . . تحابوا في روح الله على غير أموال ولا أنساب . . يتعارفون في الله ومحبون في الله ويكرهون في الله . يقول الله عنهم يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي . . اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي .

قلت له : هل لهم وجود في هذه الأيام ؟

قال :

- خلت الديار ، وباد القوم ، وارتحل أرباب السهر ، وبقي أهل النوم ، واستبدل الزمان بأكل الشهوات أهل الصوم . . لم يبق إلا أقزام مهازيل حثالة كحثة الشعير أمثالنا لا يبالي الله بهم .

قلت له : ما رأيك في أهل هذا الزمان ؟

قال في حسرة :

- اغترفوا بالله وتركوا أمره ، وقرءوا القرآن ولم يعملوا به وقالوا نحب الرسول ولم يتبعوا سنته ، وقالوا نحب الجنة وتركوا طريقها ، وقالوا نكره النار وتسابقوا إليها ، وقالوا إبليس لنا عدو وأطاعوه ، ودفنوا أمواتهم ولم يعتبروا بهم ، واشتغلوا بعيوب إخوانهم ونسوا عيوبهم ، وجمعوا المال ونسوا الحساب ، وبنوا القصور ونسوا القبور .

هو رجل مغربى منقطع للعبادة في جبل .

لم يشأ أن يذكر اسمه ولا مكانه . .

هو عبد الله في أرض الله .

يلبس بردا من الصوف ويجلس على الأرض بغير قرائش ويتوسد الحجر . . وما رأيت معه إلا بعض كتب مخطوطة . . وما رأيت ضاحكاً . . وما رأيت رافعاً بصره في طريق .

يكسب حياته من غزل الصوف .

ولا يأكل إلا بضع ثمرات فإذا ارتحل فأعشاب الطريق زاده . . وهو مورد الوجه يفيض صحة وإشراقاً .

لقد كنا في زماننا نحلم بالحج إلى مكة والقدس والموت بها .

وأنتم جاءتكم فرصة الشهادة إلى بابكم بالقدس فإذا فعلتم ؟

ولم أجد كلمة أجيبه بها .

أما هو فراح يبكي ويغمغم بين دموعه .

والله لولا عباد ركع وصبية رضع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صبا .

وحينا تركته كان قد بدأ يتشد :

وشمس على المعنى مطالع أفقها
فغريها فينا ومشرقها منا

وحينا كانت نغمات أنشاده تذوب في الهواء كانت ذاكرتي تعود بي إلى لقائي
بالمُتصوف الهندي براهما وأجيسوارا الذي رويت حديثه في كتابي الخروج من
التابوت .. ولا أدري لماذا أحسست أني أمام نفس الرجل ..

كان كلاهما يقول كلاما واحدا ، ويتكلم نفس اللغة وكأنما يجلسان على مائدة
واحدة ويقرآن من نفس الكتاب .

وتذكرت حديثي مع المتصوف المغربي عبد العزيز بن عبد الله وكيف كان
يقول لي إن التصوف الهندي هو الذي أخذ منا ولم نأخذ منه وإن تجار بابل
وفارس وعلماءها كانوا ينقلون دياناتنا الشرقية إلى الهند من أيام إبراهيم الخليل
بدليل دخول الكلمات العربية في الكلمات السنسكريتية :

سوترا .. الصورة

جو .. هو

متنا .. من أنت

بوداتا .. ذات بودا

احسين .. احسان

اسرافا .. اسراف

ماهابانا .. معاينة

كارما .. كرامة

نيرافانا .. نور الفنا .

لقد كنا نعطي دائما .

ولقد أخذ منا الكل .

واحتوت دياناتنا على الحق كله .

والتصوف الإسلامي احتوى بين دفتيه على كل الطرائق بما فيها البوذية
واليوجا .

كنت أسير مستغرقاً في التفكير

وكان انشاد الفقير المغربي ما زال يرن في أذني :

وشمس على المعنى مطالع أفقها
فغريها فينا ومشرقها منا

نعم .. إن الشمس تغرب فينا الآن ..

فتي يكون مشرقها منا ؟ ..